رشاد نوري غونتكن

الأوراق المتساقطة

الرواية التركية الشهيرة

دار العلم للملايين

إنها قصة أسرة « علي رضا بيك » الموظف الحكومي العصامي الذي ربّى أولاده الخمسة « شوكت و فكرت و ليلى و نجلاء و الصغيرة عائشة » على الشرف و الأمانة و فضّل تقديم استقالته من العمل على قبول الرشاوى أو التورّط في أيّة أعمال غير قانونية. نزاهة « علي رضا بيك » و طهارته أخلّتا بقدرته على إعالة أسرته بالمستوى نفسه الذي اعتادته ، فواجه أزمة ماديّة حادّة أدّت إلى نشوب خلافات مع زوجته التي اعتادت الإنفاق ببذخ .

لم تتوقف معاناة « علي رضا بيك » عند الجوانب الماديّة فقط بانتقاله إلى « اسطنبول » ، فواجه هناك التغيرات التي شهدها المجتمع التركي نتيجة تأثره بالحضارة الغربية الدخيلة ، و فوجئ بعادات و أفكار مستحدثة لا تتفق مع ثوابت المجتمع التركي المحافظ . و توالت الأحداث ، و راح أفراد عائلته الواحد تلْوَ الآخر يتساقطون على مرأى منه كأوراق شجرة لطالما حلَمَ « علي رضا بيك » أن تبقى صلبة شامخة في وجه تغيّرات المجتمع العاصفة و تفاعله بالمؤثّرات الأجنبية .



978-9953-63-846-1 01211
9 789953 638461

الأوراق المتساقطة

دار العلم للملايين

شارع مار الياس - بناية متكو - الطابق الثاني
هاتف : 306666 1 (961) + - فاكس : 701657 1 (961) +
ص.ب. : 1085 - 11 بيروت 2045 8402 - لبنان
internet site: www.malayin.com
e-mail: info@malayin.com

الطبعة الأولى 2012

طبع في لبنان

تصميم وتنفيذ: سامو برس غروب

رشاد نوري غونتكن

الأوراق المتساقطة

«رواية»

ترجمة: غزال يشيل أوغلو

دار العلم للملايين

باقة من الفكر التركي

* نحن ننتمي إلى الأمّة التركيّة، والمجموعة الإسلامية، والحضارة الغربيّة... لذا يجب أن يتوجّه أدبنا إلى الشعب، وإلى الناس، وفي الوقت نفسه نحو الغرب.

Ziya Gökalp

* أنا الغد، أنا المستقبل، وجذوري تمتدّ في الأمس، في الماضي.

Yahya Kemal Beyatli

* هو يفكّر، والتفكير يغذّيه
أنا أفكّر، والتفكير يجعل جوعي أكبر
أنا جائع، أيّتها الأرض السوداء،
أنا جائع، اسمعيني
ليس بإمكان المرء أن يخبئ جوعه ويخفيه

Fazil Hüsnü Dağlarca

* فعلنا كلَّ شيء من أجل بلدنا
بعضنا قضى وبعضنا يُلقي الخطب

Kanik-Rifat-Anday

ومضة

واضح أنّ الموت ليس فقدًا، ليس خسارة
به ومن دونه سوف تبقى الجداول تجري في مساراتها
بالإيمان تخضرّ الأعشاب والحشائش وتنمو الزهور
واضح أنّ الموت ليس فقدًا، ليس خسارة

Fazil Hüsnü Dağlarca

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحة موجزة عن الأدب التركيّ ومؤلّف الرواية(*)

أ ـ الأدب التركيّ في سطور منذ نشأته حتى حداثته

يلقى الأدب التركيّ في أيّامنا هذه رواجًا لافتًا وإقبالًا، ويحظى بشعبيّة واسعة حتى لكأنه بُعث من جديد، وقد نال مرتبة الشرف في معرض فرنكفورت للكتاب، الحدَث الأدبيّ العالميّ الأكبر. لقد سُلِّط الضوء عليه من جديد، وحاز كثير من المؤلّفين والكتّاب الأتراك المعاصرون شهرة واسعة وشعبيّة عالميّة ما بين ليلة وضحاها.

ترقى بدايات الأدب التركيّ إلى حقبة يعود تاريخها إلى حوالى 1500 سنة خلت، وأقدم أثر أدبيّ تركيّ مدوّن وَصَلَنا يعود تاريخه إلى القرن السابع، وهو ما يسمّى بـ «نقوش أورخان» Orkhon inscriptions المحفورة على مسلّات عُثِر عليها على نهر أورخان في أحد أودية أواسط ما يُعرف اليوم بجمهوريّة منغوليا الشعبيّة.

بدأ نشوء التراث الأدبيّ التركيّ بعد مضيّ مئة عام على استقرار الترك في بلاد الأناضول. وعلى مدى 600 عام اقتصر الأدب التركيّ على التراث الشعبيّ الموروث المتناقَل على ألسنة الناس جيلًا بعد جيل،

(*) المصدر: *An Overview of Turkish Literature*, by Talat S Halman. ministry of culture and Tourism of the Republic of Turkey.

وقد حافظ على هُويّته التركيّة المستقلّة عن الكتابات الكلاسيكيّة المدوّنة «حديثًا» أو الأدب الديوانيّ الناشئ في ظل الإمبراطوريّة العثمانيّة.

أمّا التراث الأدبيّ الشعبيّ التركيّ فهو لا يعدو كونه مجموعة من المقطوعات الموسيقيّة كان يردّدها مغنّون جيلًا إثر جيل، وقطعًا أدبيّة أو حكايات وأقاصيص كان يرويها رواةٌ، كلٌّ على سجيّته ومزاجه وطريقته في السرد والوصف والتشويق والإمتاع. وكلاهما ـ المقطوعات الموسيقيّة والحكايات ـ مجهول المصدر والمؤلف.

يزخر التراث الأدبيّ الشعبيّ بألوف القصص الخياليّة والأسطوريّة والنكات التي تصوّر حياة الناس اليوميّة وكفاحهم ليحيوا حياة هانئة، وتجسّد الأحداثَ والوقائع والتجارب الحياتيّة. ولعلّ الشخصيّة الأدبيّة المعروفة الأكثر شهرةً على مرّ السنين هي شخصيّة جحا، المعروف بـ «خوجة نصر الدين» Nasreddin Hoca النَّكّات المَزّاح الذي يبدو في بعض الأحيان مغفّلًا ساذجًا غريب الأطوار يجنّن جيرانه، مع العلم أنه لا تخلو حكاية أو طرفة أو قصّة من قصصه من مغزًى وعِبرة تكشفها نهايتها.

أمّا التراث الملحميّ الشعبيّ فلعلّ «كتاب ديدي كوركوت» The Book of Dede Korkut الذي تناقلته الألسن وزادت عليه على مدى قرون، ما بين القرنين التاسع والحادي عشر، ودُوِّن في القرن الرابع عشر، يمثّل نِتاج هذا النوع الأدبيّ الملحميّ البدائيّ التراثيّ الذي ساد في الأناضول قرونًا.

في القرن الثالث عشر وما بعده تأثّر التراث الشعريّ الشعبيّ في الأدب التركيّ بالتراث الإسلاميّ الصوفيّ، ولا ننس القطب الصوفيّ الفاضل والشاعر الإنسانيّ الخيّر «يونس أَمْرَه» Yunus Emre.

في مقارنة واضحة بين التراث الأدبيّ الشعبيّ التركيّ والتراث الديوانيّ التركيّ نرى أنّ الأخير ينحو نحو التأثّر بالأدبَيْن واللغتَيْن العربيّة والفارسيّة مُسهمًا بذلك إلى حدٍّ ما في تطوير اللغة التركيّة. أمّا الشّعر الديوانيّ العثمانيّ، بالمقارنة بالشعر الشعبيّ، فقد وُضعت له أُسس وأقيسة ومعايير، ونُظمت أوزانه وقوافيه وأصوله، وغلبت عليه أنواع التشبيه والاستعارة وضُمِّنت عباراته تأويلات ومعاني شتّى، وغلب عليه الرمز، في حين لم يتطوّر النثر التركيّ كثيرًا ولم يتضمّن نماذج تخييليّة، لذا لن تجد في الأدب التركيّ ما قبل القرن التاسع عشر أيّ نص يشبه النصوص الرومانسيّة الأوروبيّة أو قصصها ورواياتها.

أسهمت نشأة الحركة الأدبيّة الوطنيّة (القوميّة) بين عامي 1839 و1876، حقبة التنظيمات، في إعادة بناء نصوص تراثيّة كثيرة بهدف تحديثها وإزالة آثار الدولة العثمانية وتحريرها منها. ودعا إصلاحيّون كثيرون إلى أن ينحوَ الأدب مَنْحًى بعيدًا عن الفارسيّة والعربيّة الديوانيّة باتجاه التراث الشعبيّ. وللمرة الأولى بدا الأدب التركيّ تركيًّا مستقلًّا عن مؤثِّرَيْه الكبيرين المذكورين.

وممّا يثير الاهتمام أنّ نشوء الوعي القوميّ رافقه منحى التغريب ودخوله الإمبراطوريّة العثمانيّة. بدأ التأثّر أولًا قويًّا، وعلى الأخصّ بالأدب الفرنسي، وظهر في آثار أدبيّة كان أشهرها رواية «عشق طلعت وفتنت» «Taaşşuk-i Talat ve Fitnat» لـ Şemsettin Sami التي كانت الرواية التركية الأولى مبيعًا لسنوات، وقد نشرت سنة 1872.

في ذلك الوقت ظهرت حركة «تركيا الفتاة» وكانت تضمّ مجموعة من الإصلاحيين المعارضين للحكومة العثمانيّة المتسلّطة اتخذوا لأنفسهم

هويّة تركيّة قوميّة تحديدًا. وقد تأثّر الأدب التركيّ بظهور حركة «القوميّة التركيّة» وانعكست عليه تقاليد تلك الحقبة وأعرافها السائدة آنذاك بظهور حركة «القوميّة التركيّة» وسُمِّيَ أدب تلك الحقبة بـ «الأدب القوميّ». وقد ظهر أكثر ما ظهر في السنوات التي سبقت تأسيس الجمهوريّة التركيّة سنة 1923، والكتّاب الثلاثة الأكثر تمثيلًا لتلك الحركة هم: Ziya Gökalp الذي فرض نفسه مربّيًا قوميًّا إلى حدٍّ ما، وÖmer Seyfettin وAli Canip Yöntem.

بعد مُضيّ خمس سنوات على إعلان الجمهوريّة فُرض الحرف اللاتينيّ وألغي الحرف العربيّ «العثمانيّ» وأُنشئت «جمعيّة اللغة التركيّة» (TDK) Türk Dil Kurumu سنة 1930 ومهمّتها إعداد الأبحاث اللغوية الضروريّة لذلك لـ«تطهير» اللغة من الكلمات الدخيلة الفارسيّة والعربيّة، وحتى من لغات القبائل، وعلى الخصوص اللغة الكرديّة، بهدف إيجاد لغة صافية تركيّة صِرْف. وغنيّ عن القول إنّ اللغة التركيّة والأدب التركيّ والتراث التركيّ فقدت كنزًا من المؤثرات الثقافيّة المُغنية وضيّعته.

التعصير الأدبيّ في الجمهوريّة التركيّة: في السنوات الأولى لظهور الجمهورية نشأ تيّار جديد للتعصير الأدبيّ التركيّ وتجلّى في كتابات Sait Faik Abasiyanik وSabahattin Ali قِوامه تصوير وقائع الحياة اليوميّة والتعبير عن الآراء والآمال والتوقّعات في الأدب التركيّ.

وعلى نحوٍ مماثل ظهر ما يسمّى بتراث قصص القرية، وترسّخ فيما بعد وصف الحياة في القرى والمدن التركيّة الصغيرة الأقلّ حظًّا. وممن ألّف في هذا الباب كتّاب مشهورون أمثال Tahir Kemal وOrhan Kemal و Yaşar Kemal الذي طارت له شهرة عالميّة ليس فقط لكونه

نال جائزة الرواية «Ince Memed» للعام 1955، ولكن لموقعه السياسيّ الثابت المؤيّد للخطّ اليساريّ.

وثمّة روائيّ مهمّ علينا معرفته هو Ahmet Hamdi Tanpinar، فهو عدا عن تجسيده تقاليد القرية وتصويره الواقع الاجتماعي، يتمتع بأسلوب معبّر مؤثّر يبعث العواطف ويثير الإعجاب في معرض تصدّيه لموضوع الصراع بين الشرق والغرب في المجتمع التركيّ الحديث وثقافته.

ولنتأمّل بعناية آثار الروائيّ الوجوديّ الداعي إلى العصرانيّة Oğuz Atay وروايته التي أسماها «الرجل في المعطف الأبيض» Beyaz Mantulu Adam الصادرة عام 1975، والأديب الذي يغلب على مؤلّفاته المنحى السريالي Onat Kutlar وروايته «إسحق» Ishak الصادرة عام 1959، ولا يفوتنا كاتب القصّة القصيرة الناقد الهجائيّ الساخر Aziz Nesin.

أمّا في الشعر المعاصر فثمّة شاعر علينا أن لا ننساه هو Nazim Hikmat، يساريّ راسخ في يساريّته ثابت عليها، كتب أشعارًا ثوريّة بلمسات فنّيّة جماليّة ما تزال تثير عواطف الكثيرين حتى اليوم وتُلهبها. هذا الشاعر هو الذي أدخل الشعر الحرّ إلى اللغة التركيّة، وأسّس بذلك خطًّا وتقليدًا اشتراكيًّا صار مألوفًا لدى كتّاب تركيّين كثيرين في ستّينيّات القرن الماضي.

وفي السنوات التي تلت عرف الشعر التركيّ حركتين كبيرتين هما المجموعة الشعريّة «الغريب» Garip التي صدرت سنة 1941 للشاعر Orhan Veli Kanik، بالتزامن مع أعمال Melih Cevdet Anday و Oktay Rifathe وكانتا الأساس الذي ارتكزت عليه «الغريبيّة» «Garipçiler»، وكان الهدف إيجاد فنّ شعبيّ بعيد كلّ البعد عن القيود الشكليّة الشعريّة

بلغة عامّيّة ريفيّة «خام» لم تُشذَّب وتُهذَّب، وموضوعاته مألوفة. وزيادةً على ما ذكرنا، هناك حركة تجريديّة مُثقلة بالموحيات متأثّرة بالداديّة والسرياليّة هي حركة «التجديد الثاني» Yeni Ikinci. من أشهر أعلامها Turgut Uyar وIlhan Berk وEdip Cansever.

وهكذا، وبعد رحلات قمنا بها إلى ماضي الأدب التركي منذ نشأته، وتدرّجنا خلالها عبر مراحل تطوّره في كينونته حتى أواخر القرن العشرين، لا بدّ لنا من الاطّلاع على أبرز أعلام الأدب التركيّ العالميّ في بدايات القرن الحادي والعشرين ومؤلّفاتِهم الأكثر مبيعًا.

أولًا، وقبل كلّ شيء، هناك Orhan Pamuk الحائز على جائزة نوبل للآداب للعام 2006، وأكثر مؤلّفاته شهرة: «القلعة البيضاء» Beyaz Kale و«اسطنبول» Istanbul، وأحدثها «متحف البراءة» Masumiyet Müzesi. وثمّة مؤلّفون آخرون من بينهم عدد من النساء. انظر: Latife Tekin وElif Şafak وPrihan Mağde.

ب ـ مؤلِّف رواية الأوراق المتساقطة رشاد نوري غونتكِن (1889-1956)

حياته وعمله

وُلد في اسطنبول في 25 تشرين الثاني/ نوفمبر سنة 1889 وتخرّج في كلية الآداب في جامعة اسطنبول ونال شهادة في الأدب.

أسهم في إصدار مجلة ساخرة باسم «الفراشة» بين عامي 1923 و1924 وعمل مدرّسًا للأدب والفلسفة ثم مفتشًا في وزارة التربية. انتُخب نائبًا عن مدينة «شنق قلعة» Çanakkale (1939 ـ 1943) وانتُدِب ممثلًا لبلاده في اليونسكو، ثم أحيل على التقاعد عام 1954. أصيب بداء

سرطان الرئة وتلقّى العلاج في مشافي لندن حتى وفاته سنة 1956.

شخصيّتُه الأدبيّة ونِتاجه الأدبيّ

سماته الأدبيّة وتطوّرها في المرحلة الأولى ـ ركّز غونتكِن في رواياته الأولى على الإنسان الجديد في سياق التغيُّرات الاجتماعيّة في النصف الأوّل من القرن العشرين. وقد اتّسمت رواياته المبكرة بالطابع الحكائيّ والنزوع الميلودراميّ، حتى إنّ أحد النقّاد أرجع سرّ شعبيّة روايته «عصفور الصعو» Çalikuşu والإقبال المستمرّ على شرائها وقراءتها إلى يُسر تِقانته السرديّة بحيث لا تتطلب من القارئ مستوًى ثقافيًّا عاليًا أو بذلَ جهد فكريّ، وإلى تلبية رغبة الناس في ارتياحهم إلى الخير والطيبة والحق من خلال شخصياته الكثيرة التي تحب فعل الخير وتقوم به وتنزع إليه من دون منفعة شخصية، وكذلك في تصويره الواقعيّ لِماجَرَيات الأمور في زمانه.

في المرحلة الثانية ـ خفّف غونتكِن من العاطفة المفرطة وأصبح الهمّ الاجتماعيّ محورَ أعماله. تناول موضوعات مثل الصراع بين المثقفين والمحافظين، ومشكلات الثأر كعُرفٍ تقليديّ، والتسوّل، وأثر القيم البورجوازيّة الحديثة في الجيل الجديد الذي يعيش في بيئة محافظة.

تجسّد شخصيّاته مختلف طبقات المجتمع وفئاته وتعبّر رواياته عن كيفيّة تفاعل هذه الشخصيّات على اختلافها مع التغيّرات الاجتماعيّة رفضًا وقبولًا.

لغته الأدبيّة

سرديّة عفويّة قريبة سهلة حكائيّة، تتلاءم مع الشخصيات الناطقة بها

ودرجة ثقافتهم وانتمائهم المدينيّ أو الريفيّ والمهنيّ والاجتماعيّ.

أدرك غونتكِن أهمّيّة اللغة فطوّر لغته واستفاد من إمكانات اللغة المحكيّة وأجراها على ألسنة شخصيّات تلائمها، وتفوّق في جُمَلِه الحواريّة على معاصريه من الروائيين.

غونتكِن الأديب

ناقدٌ وكاتبُ رواياتٍ وقصصٍ قصيرة ومسرحيّات.

من كتاباته ومؤلّفاته

له من المسرحيّات: «كِسْرة حجر» Parcasi Tas عام 1923 و«الأغنية القديمة» Sarki Eski عام 1951 في الدراما العائلية، و«الزوج المستأجَر» Hülleci عام 1953 في النقد الاجتماعي.

له من القصص القصيرة: أكثر من أربع مجموعات نُشرت في مجلّات زمانه.

له من الروايات: «عصفور الصعو» Çalikuşu عام 1922 و«من الشفتين إلى القلب» Kalbe Dudaktan عام 1923 و«الغجر» عام 1927 و«الليلة الخضراء» Gece Yesil عام 1928 و«الطاحونة» Değirmen عام 1944.

د. هدى ر. سنو

الجزء الأول

1

لماذا استقلتُ من شركة «ألطن يبراك» المساهمة؟! ليس من سرٌّ في هذا الأمر؛ لم أستطع العيش براتب اثنتين وستين ليرة لأنني أحمل على كُاهلي عبء شقيقين وأمٍّ مريضة؛ كانت أمي تعاني البرد، وكانوا جميعهم يعانون قلة الطعام أحيانًا. لم أكن أكترث، وكنت أقول لهم:

ـ ماذا أفعل؟! لا أستطيع تقديم أكثر مما أقدّمه. لو أنّي أهدر ما أقبضه من مال في الملاهي والحفلات لحقَّ لكم توبيخي.

كم كان جميلًا لو فهموا هذه الحقيقة الساطعة!

ـ أيتها السيدات والسادة، إذا لم تعجبكم مائدة هذا الفندق فلا تدفعوا الحساب كاملًا، وإن كان أحدكم يعرف مكانًا أفضل فليخبرنا لنذهب إليه.

ومن ثَمّ أُغلق الباب ورائي وأذهب.

أمي امرأة عجوز، وأخواي لا حول لهما ولا قوة... يرضخون ويستسلمون عندما يرتفع صوتي وأتكلّم بهذه الطريقة. لكن كيف يمكنني إقناع الوحش الكبير ـ أي نفسي ـ بذلك؟ صحّتي وقوّتي على ما يرام... وأنا شهوانيّ... أشتهي كلّ ما أراه...أرى الطعام

فأشتهيه، وأرى الملابس فأريدها... أرى أنّ من حقي الحصول على ذلك مثل الآخرين، وعندما يكون الوضع هكذا تخيلوا القيامة التي تقوم في داخلي.

كان برد الوحل الذي يدخل من أسفل حذائي المثقوب في ليالي الشتاء المظلمة يعشِّش في رئتي، وكانت السيارات الفخمة تمرّ بجانبي وأنا في طريقي إلى بيتي بعد أن أجول في أزقّة الحيّ كي لا أمرَّ أمام أصحاب الدكاكين الذين كنت مدينًا لهم. كنت أعرف أنّ بعض الذين يركبون السيارات يذهبون لصرف حفنات من النقود، عندذاك أشعر بانقباض في داخلي. وأسأل نفسي: «هل هؤلاء أفضل مني؟! لماذا نتخبّط في الأزقة مثلَ الكلاب وهم يعيشون حياة مرفّهة ويستمتعون كما يريدون؟! لماذا لا ألبس الثياب التي تعجبني وآكل ما أشتهي؟! لماذا لا أستطيع أن أعيش حياتي كما أشتهي؟»

بعد شهور وسنوات من هذا الصراع الذي دار في داخلي توصّلت إلى نتيجة هي: «والدي كان إنسانًا شريفًا أكثر مما ينبغي»، كان يقول:

- إن أسمى ميراث يتركه أب لأبنائه هو اسم نظيف.

كم كان رائعًا لو رافق الاسمَ النظيف قليلٌ من المال! لكن لا يمكن للأولاد المُعدَمينَ من كلّ شيء المقاومة لأكثر من جيل أو جيلين. هل كان والدي مُحقًّا أم مخطئًا؟ مهما يكن، فهذا بحث آخر... لكن من المؤكد أن الناس الأغنياء الذين نراهم حولنا لم

يُولَدوا من بطون أمهاتهم وهم يتربعون على كراسيهم ويحملون دفاتر الشيكات، هم لا يبذّرون أموالهم هنا وهناك من دون داعٍ، لقد وفّروها... وطالما تدّعي أنك لست من الناس الأغبياء مثل الحمير فلا أحدَ يكبّل يديك ورجليك. عليك تجربة حظّك بدلًا من التباكي كالشحّاذ، فإذا توفّقت فهذا جيّد... وإذا لم توفّق فقد تقول لنفسك:

ـ ماذا سأفعل؟ لقد قمت بما يتوجّب عليّ ولم أفلح.

عندذاك تُحمّل الحظ الأعمى مسؤوليّة ما حدث، ثم تنساه.

الرجل الذي يقول هذا الكلام هو الشابّ ذو الأسنان البيضاء الحادّة، الأسمر، الشجاع الذي استقال من وظيفة كاتب المحاسبة من الشركة قبل شهر، وقد جاء ليأخذ بعض أغراضه التي نسيها وليتفقد رفاقه.

كنا في استراحة الغداء، وكان الموظفون الكبار قد ذهبوا إلى المطعم الذي في الحيّ المجاور لتناول سلطة البيض والفاصولياء واللحمة، أما الذين لم يكونوا يمتلكون نقودًا ينفقونها في تلك المطاعم الفخمة فقد كانوا يشبعون بطونهم بالجبن والزيتون والبيض المسلوق من جهة، ومن جهة أخرى كانوا يستمعون إلى صديقهم القديم الذي كان يتمدّد على إحدى المناضد مسترخيًا، ويمضي في حديثه وهو يضرب بكعب حذائه على الأوراق المبعثرة.

نظرت حولي بعينين تستخلصان العبرة بعد أن قرّرت،

وأقدمت على فعل شيء ما... كُنا مع الرجال الملتحين ذوي الشعور الطويلة وقد اصطفّ بعضنا وراء بعض مثل أطفال المدارس وأصبحنا ضمن قطيع غريب، وكنا نراوح مكاننا بلا جدوى مهما حاولنا وبذلنا من جهد للتزحزح حتى ولو تدافعنا مع من يقف أمامنا أو وراءنا... هكذا كنا في عملنا ننتظر عدّة سنوات كي يزيد راتب أحدنا بضعة قروش. يجب أن يُطرَد شخص أو يموت آخر حتى نستطيع التقدم خطوتين إلى الأمام. قلت لنفسي: «ليحدث ما يحدث»... ثم خرجت من هذا السرب وتركت العمل في «شركة ألطن يبراك المساهمة».

هل مضى شهر على فراقكم؟ أظن أنّه لم ينقضِ بعد... لقد تنفّست الصُّعَداء، أليس كذلك؟!

استوى جالسًا وأظهر جرابه الحريري وقميصه الجديد بغرور.

ـ لكن هل ما أقوم به عمل سيّئ؟! هل أمسُّ ممتلكات أحدٍ أو حياته أو عرضه!؟ لا، أبدًا... أنا أعمل عند سمسار في خان «هويار» فقط، أستجرّ بضاعة من الجمرك على حسابه... وها أنا الآن أتقاضى راتبًا بسيطًا ومن دون تعب نسبيًّا... لكن الحمد لله، أموري على ما يرام.

تنهّد الرجل العجوز الذي يعاني من سعال دائم وقال:

ـ الحق معك، لكن فاتنا القطار...

كان هناك شابّان تبدو البراءة على ملامحهما ينظران إليه بحسرة وحيرة كأنهما يتابعان مباراة نهائيّة في كرة القدم، لكن

كان من غير الممكن فهم ما يفكر فيه الرجل الذي تجاوز الأربعين وعلى أحد خدَّيه ندوبُ حروق خلَّفتها الحرب، كان قد توقّف عن تناول الطعام وبدأ يفكر واضعًا قبضة يده تحت ذقنه.

كان الشابّ قد نزل عن المنضدة وبدأ يتحدث عن قصص النهب وخان «هويار» والجمرك بعد أن أشعل سيجارته من لهيب النار الذي يخرج من المدفأة.

كانت القصص مبالغًا فيها إلى درجة أنه أضاف ألفًا إلى الواحد! لكنّ هؤلاء الرجال المحرومين كانوا يتقبلون قصصه كما هي، وكان هو يأسف لحالهم بسبب التعاسة التي يعيشونها في هذه الغرفة الرطبة من أجل بضع ليرات وهم شبه جياع، في الوقت الذي يقوم الآخرون باستجرار الذهب بالرفش!

لمحت عينا الخطيب عيني رجل شيخ تنظران إليه من وراء مكتب عالٍ في إحدى زوايا الغرفة، فخجل فجأة وسكت وكأنه فقد كلَّ شجاعته.

هذا الرجل المتصرّف القديم الذي تجاوز عمره الستين عامًا هو علي رضا بيك، الذي كان يعمل على مكتبه في إحدى زوايا الغرفة بصمت دائمٍ وكأنه منسيّ، ولم يكن يتحدث مع أحد وكأنه في وسط الصحراء. كان الجميع يحترمونه كبارًا وصغارًا، فهو رجل مهذّب ومحترم.

كان علي رضا بيك من الموظفين الذين لم يذهبوا لتناول الغداء، فقد استرعى الحديث انتباهه من دون إرادته عند تناوله

الكبّة الناشفة والزيتون الأخضر الذي أحضره بـ«السفرطاس» الألمنيوم، فترك شوكته ورفع رأسه، كأنّ ما سمعه قطع شهيّته...

قال الشاب الضيف:

ـ يا سيِّد! ما قلتُه قد لا يعجبك، لكنْ ما العمل؟ هذه هي الحقيقة.

فأجابه علي رضا بيك مثل طالب المدرسة الخجول:

ـ كما تعلمون أنا لا أتدخل في أفكار أحد، أنت حرّ في فعل أيّ شي يناسب مصلحتك وراحتك، لكنْ لو سمحتَ لي فسأنتقدك من جهة أخرى. هل من الصحيح إيقاظ المطالب والعواصف في نفوس بشر يعملون في زواياهم قد يكونون قانعين بحيواتهم؟! أنا واثق بضميرك... لكن لو فكّرتَ مثلي قليلًا لعرفت أنني على حقّ أيضًا...

كان من الواضح أنّ الرجل المسنّ لم يكن يريد التحدث أكثر من ذلك. لكنّ الضيف لم يدعه وشأنه، فقال بطريقة مهذبة:

ـ قد تكون محقًّا لو كنت أنا الشخص الوحيد الذي يبوح لهم بهذه الحقائق، لكنّ الناس في هذا العصر ـ مع الأسف ـ يتعلمون من هذه الحقائق، ومن الحياة، ومن الأشياء التي تسمّيها الصحافة «الظروف الاقتصادية والمعيشية». لقد شهد العالم يقظة كبيرة، ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية، والناس في الوقت الحاضر يختلفون عن الناس الذين هم من جيلك، لأنّ ناس هذا الزمان ليسوا كالذين عاصرْتَهم،

إنّ تفتُّح عيونهم زاد آمالهم وتطلّعاتهم، والناس كلُّهم اليوم يشكون سوء أوضاعهم. هل من الممكن أن تعتقد أنّ القواعد الأخلاقية القديمة لم تتغير بعد، رغم التطوّرات التي حدثت؟!

اصفرّ وجه علي رضا بيك وابتسم محاولًا إخفاء الرجفان الخفيف الذي بدا واضحًا على شفتيه ولحيته وقال:

- أنا إنسان من الطراز القديم، لذا لا يمكننا أن نتفق... لقد عشت طول عمري مقتنعًا بأن بإمكان البشر تحقيق السعادة بطرق مختلفة بعيدًا عن المال، وسأموت وأنا على هذه القناعة.

ردّ الشابّ على علي رضا وكأنّ قلبه يتألم له فقال:

- الحقّ معكم إلى درجةٍ ما، فمثلًا: بإمكان الإنسان مواساة نفسه بانشغاله بالعبادة أو بالعزف على آلة موسيقية أو تربية الأطفال وأشياء أخرى... لكنه يحتاج إلى النقود بالقدر الذي يسمح له بالعيش. مثلًا: أنت مولع بالورود لكنّ دخلك من المال قليل. في هذه الحال كن واثقًا بأنك لن تستطيع الحصول على الورود التي تريدها بألوانها وروائحها في أرضها مهما حاولت. فأنت أب، ولديك أطفال، ولا مال لديك، أليس كذلك؟! لذا ليس بإمكان أولادك تقديم أيّ سعادة لك في خريف عمرك سوى مشاهدة الأوراق المتساقطة.

انتهى الحديث هنا، فحنى علي رضا بيك رأسه مرة أخرى وواصل تناول طعامه، لكنه بدأ يجد صعوبة في ابتلاع اللقم، كأنها كانت تعلق في بلعومه...

كانت الكلمات الأخيرة التي سمعها من الشابّ قد أثّرت فيه كثيرًا، فقد كان أبًا لخمسة أولاد لم يظهر حتى ذلك الوقت أحد منهم على الساحة، وادعاء الشابّ بأنّ «الناس على علم بتلك الحقائق المرّة والظروف الاقتصادية والحياتية الصعبة» لم يكن مقبولًا على الإطلاق... كان العم علي رضا بيك قد وهب حياته لتلقين أولاده الأفكار السامية وتنشئتهم على الأخلاق الحميدة. فهل من المَعقول أنْ تزعزعهم أجواء الزمان الجديد وتوصل الأب العجوز إلى يوم يشهد فيه تساقط الأوراق؟!

لم يكن علي رضا بيك رجلًا مغمض العينين. كان هذا الخوف قد انتابه عدّة مرات في الماضي، لكن لم يظهر له قطّ أنّ هذا الخطر قد أصبح قريبًا منه إلى هذه الدرجة... كان يدعو الله، على الرغم من أنه لم يكن مؤمنًا، ولم يكن ينتظر شيئًا من السماء، وكان يفتح يديه ويقول: «يا ربِّ احفظ أولادي...»

2

كان علي رضا بيك موظف دولة، نشأ في «الباب العالي»، وعمل في قلم الداخلية حتى سن الثلاثين... وربما كان سيبقى هناك حتى مماته، لكن وفاة والده وشقيقته بفارق شهرين فقط أدّت إلى شعوره بالبرود تجاه اسطنبول، وذهابه إلى الغربة، واستلامه موقع قائم مقام في إحدى نواحي سوريا. كان يعتقد أنّ الحلّ الأمثل يكمن في تغيير المكان والتخلص من الأغراض التي حوله مثل أغلب المرضى الذين تنقصهم الخبرة ويظنون أن الآلام تأتي من السرير الذي ينامون عليه ومن تلك الأغراض التي حولهم! لم يستطع علي رضا بيك منذ ذاك الوقت العودة إلى اسطنبول مرة أخرى، وجال في العديد من مدن الأناضول، وشغل عدة وظائف مدة 25 سنة.

كان شخصًا ماهرًا يمتلك المعلومات، لكن لم تُفده مهارته ولا معلوماته... لقد كان يتكلم اللغتين الإنكليزية والفرنسية، إضافة إلى العربية والفارسية، كما اهتم بالآداب في شبابه، ونشر عدة قصائد شعرية جميلة في الصحف والمجلات، وكان يهتم بالفلسفة والتاريخ أيضًا...

لم يكن يقرأ الكتب في أوقات فراغه بل كان يقرأ أثناء دوامه حين تسنح له الفرصة... وهذا هو الشيء الوحيد الذي سرقه من خزينة الدولة خلال حياته الوظيفية الطويلة.

كان رجلًا نزيهًا إلى درجة الهوس، ولبقًا إلى درجة السخرية.

لم يكن يستطيع حلّ المشكلات خشية كسر خاطر الآخرين أو هضم حق أحد أو انتهاك القانون. لم يكن يريد من العمل الذي يقوم به أن ينسجم مع القانون فقط، بل مع قواعد الإنسانية واللباقة أيضًا، بمعنى آخر يجب أن يكون سليمًا من كل الجوانب. أمّا الذين يتحدثون عنه فقد كانوا يقولون: «إنه رجل جيّد... إنه رجل كالنبيّ... قبّل يديه... اطلب منه الدعاء... دعْه يتحدث في العلم... ويقرأ الشعر... اطلب منه ما تريده، عدا الشغل...»

تزوج وهو في سنّ الأربعين تقريبًا. كان بناء الأسرة في نظره عملًا مهمًّا كبناء الدولة الجديدة، لذلك كان من الممكن ألّا يتزوج أبدًا... لكنّ أحد أصدقائه اقترح عليه إحدى قريباته، فوافق علي رضا بيك كونه كان يخجل من الرفض.

من حسن حظه أن زوجته كانت امرأة نقيّة ومحترمة، وكانت قد تجاوزت سن الخامسة والعشرين على الرغم من أنهم أكدوا له أنها لم تتجاوز سن العشرين. أظهر علي رضا بيك فعالية في دائرة النفوس لم يستطع إظهارها في أي دائرة أخرى في الدولة. وأنجب خلال سبع سنوات خمسة أولاد، الواحد تلو الآخر، وفي النهاية أكمل نصف دزينة بإنجابه طفلة في يوم ميلاده الخمسين بعد استراحة دامت أربع سنوات. وقد سلِمَ له خمسة من أولاده، بعدما فارق الحياة نجله الثاني نجدت وهو في سن الثالثة بداء الحمى المالطية.

هناك تشبيه لعلي رضا بيك الذي ظل يكتب قصائد شعرية في

أوقـات فراغه، يحبه كثيرًا، فقد كان يشـبِّه الأحـداث بالفيضانات الجارفة، ويشـبِّه نفسه بإنسان يشـاهد تلك الفيضانات عن بُعد... لـم يكـن لينجرّ إلى تلـك الفيضانات على الرغـم من أنه موظف أمامه آفاق مفتوحة لشَغْل مناصب مرموقة، وكان سيبقى في موقع المتفـرج في الحيـاة طول عمره لـولا أنّ محاولـة تغيير المجرى الأزلـي للأحـداث ـ مـع الأسـف ـ محاولة فاشـلة. هكذا جرت الأمـور، وهكـذا تجـري... لكـن أولاد علـي رضا بيك الخمسة الذيـن أتـوا واحدًا بعد الآخـر أجبروه على تغييـر قناعته؛ لأنه لا يمكـن لرجـل البقاء في موقع المتفرج الـذي لا حول له ولا قوة وهو مسـؤول عـن تربيـة خمسـة أولاد! منذ تلـك اللحظة ذهب الموظـف الرخـو الـذي كان في موقـع المتفرج علـى الأحداث، وحلّ محلّه رب الأسرة الدؤوب الذي يأخذ بالاعتبار أيّ تضحية من أجل أولاده...

لـم يتعـب من العمـل ليل نهار مـن أجـل أولاده، وكان ذلك يسعده. لكن كانت هناك فكرة تدور في ذهنه: ألم يتأخر؟!

كانـت هذه الفكـرة تزعجه قليلًا في أوقات التعب والتشـاؤم، لكنه لم يتوقـف عندها كثيرًا.

كان يواسي نفسه بالقول:

ـ جسدي قويّ... أستطيع العيش عشرين سنة أخرى بسهولة إذا لم أتعرّض للموت نتيجة حادث ما...

كان العيش عشـرين سـنة أخرى زمنًا طويل الأمد... لكن إذا

لـزم الأمـر فإن نصف هذه المدة يكفيه للقيـام بما عليه القيام به. كانت ابنته الأخيرة عائشة قد وُلدت ـ في الحقيقة ـ في وقت لم يكن ينتظرها... لكن لا داعي للخوف؛ لأنه إذا لزم الأمر فسيوكّل إخوتهـا الكبـار بالقيـام بالواجـب الذي يقـع على عاتقـه حيالها، وبذلـك يكون قـد اطمأن باله بخصوصهـا... طبعًا، يمكن تحقيق ذلـك في حال تمّت تربية أولاده بالطريقة التي يفكر فيها... لكن حسابات علي رضا بيك انقلبت رأسًا على عقب بعد أن عرضت له حادثة لم تخطر له ببال، ما اضطرّه إلى ترك وظيفته في الدولة وهو في سنّ الخمسين.

كان متصرّفًـا علـى متصرفيـة «ترابـزون» حيـن جـرت حادثـة اختطـاف امرأة في أحد الأيام، كان زوجها قد تعارك والشـخص الـذي حـاول اختطافهـا بالسـكاكين. كان الزوج فلاّحًـا معدمًا لا أحـد يقـف معه، أمّا الشـخص الذي حـاول اختطـاف المرأة فقد كان مـن العائـلات المعروفة، لذلـك كان كل أهـل البلدة يقفون معـه. وهكذا وجب غـض النظر عن المذنب الحقيقي والسـماح لـه بالتمتع بالحرية، وتمّ زجّ المعتـدى عليه المجروح في صدره بالسـجن! أصبـح علـي رضا بيك الـذي امتهن عـدم التدخل في أي شـيء منذ بداية وظيفته كمن يمسـك بكتلة من النار في هذه المشـكلة، وظـل يتابعها بدأب حتـى طُرد من الوظيفـة. ماذا كان سـيفعل؟ المشـكلة مشكلة حق وضمير وشـرف... وإذا قصّر في القيام بوظيفته فإن الله سيعاقبه بأولاده...

بقى علي رضا بيك في اسطنبول بلا عمل مدة من الزمن، ولم يكن قد ادّخر نقودًا ليوم الحاجة... وهل من الممكن لمتصرف أب لخمسة أولاد توفير المال؟! رحم الله مَنْ ورّث! كان لديه بيت قديم في «بغلار باشي» ورثه عن والده، فباع بعض القطع من مجوهرات زوجته ليصلح البيت، وسكن مع عائلته فيه. أزعجته هذه الحادثة كثيرًا. لو كان الأمر متعلقًا به لتحمّل الجوع حتى الموت على أن يطلب الوظيفة من الدولة مرة ثانية. لكنه أب لخمسة أطفال، لذا كان مجبرًا على العمل مدة خمس سنوات أو ستًّا، وكان عليه أن يذلّ نفسه و«يشحذ» وظيفة في الدولة من أجل خاطر أولاده.

راح علي رضا بيك يرتاد ممرات «الباب العالي» للعودة إلى وظيفة جديدة. وفي يوم من الأيّام اقترب منه شاب طويل كان قد خرج من غرفة وزير الداخلية فأمسك بيده وحاول تقبيلها، وقال:

ـ ألم تعرفني يا أستاذي؟ أنا طالبك القديم مظفَّر...

عرفه علي رضا بيك بعد أن نظر إليه نظرة مدقّقة. كان علي رضا بيك قد عمل وكيل معلّم لمدة خمسة أشهر أو ستة في إحدى المدارس الإعدادية في المحافظات بدلًا من أستاذ التاريخ الذي أصابه المرض. كان مظفَّر لا يزال طالبًا في المدرسة، وكان قد ترك أثرًا في علي رضا بيك كونه طالبًا ذكيًّا ونشيطًا. وعلى ما يبدو فإن هذا الشاب قد قطع شوطًا كبيرًا، لأنه خرج من مكتب وزير الداخلية مفعمًا بالثقة بالنفس، وكان ذلك واضحًا من خلال

ابتسامته وحديثه في الممرّ. رأى علي رضا بيك بعد قليل أنّ ظنه لم يخدعه.

كان مظفّر عضو مجلس إدارة لشركتين، والمدير العام لـ«شركة ألطن يبراك» المساهمة في الوقت نفسه، فقدّم لأستاذه القديم عرضًا بعد أن استمع منه عن حاله. كان تغرُّب علي رضا بيك في هذه السن غير مقبول مع أن هناك شركة مقرّها بريطانيا بحاجة إلى موظف يتقن اللغتين الإنكليزية والعربية. كان يعرف أن أستاذه شخص ذو قيمة كبيرة، وأنّ بإمكانه الحصول على راتب كالذي كان يأخذه من الدولة، وحتى أكثر منه من الشركة، هذا إذا أراد ذلك. وافق علي رضا بيك على هذا العرض بفرح كبيرٍ، وكان سيوافق وسيحمد ربه حتى لو أعطته الشركة راتبًا أقلّ من الذي يقبضه من الدولة كموظف.

لم يكن يريد الخروج من اسطنبول لأن أولاده كانوا قد كبروا، ولا يمكنه أخذهم معه والانتقال بهم من مدينة إلى أخرى كما كان يحدث في الماضي.

وهكذا أصبح المتصرّف القديم منذ خمس سنوات من أفضل موظفي «شركة ألطن يبراك المساهمة». كان يعمل من الصباح حتى الليل دون توقف، وكان عمله يضاهي عمل ثلاثة موظفين، وذلك لسببين: الأول أنه لم يكن يريد أن يُشعر مظفّرًا بالندم بسبب الجميل الذي قدّمه له، والثاني: أن عمله كان الترجمة بصفته «سفيرًا دائمًا» وهو ما لا يعرّض حقَّ أحد للخطر، باستثناء الكلمات!

3

ذات يوم جاء أحد المستخدَمين المسنّين إلى علي رضا بيك وقال له:

- يا سيد علي رضا بيك! هناك امرأة تريد مقابلتك، قالت إنها والدة لَمان خانم.

كانت لَمان خانم موظفة تعمل على الآلة الكاتبة في الشركة، وهي واحدة من بنات أحد مدراء الغابات تعرّف إليه علي رضا بيك قبل10 ـ 12 سنة في إحدى المحافظات. كانت آنذاك طفلة عمرها 7 ـ 8 سنوات، وكانت تأتي وتلعب مع بناته أحيانًا... ومنذ سنة ظهرت أمام علي رضا بيك فتاة جميلة في ميناء «أوسكُدار» للبواخر وقالت له: «أنا لَمان صديقة بناتك يا عمي»، وأقدمت على تقبيل يده. كان والد لَمان قد توفي قبل خمس سنوات، وكانت تسكن في «فندقلي» مع والدتها. كانتا قد عاشتا أيّام ضيق صعبة. تحدّثت الفتاة عن وضعها بصراحة ما أثّر في نفس علي رضا بيك. لم تكن علاقته مع والدها، في الحقيقة، حميمة، لكن وجود بنت يتيمة في سن أولاده كان كافيًا لإيقاظ الرغبة في المساعدة لدى الرجل المسنّ. لم تكن لَمان متعلمة كما يجب، لكنها تعلّمت القراءة والكتابة وعمِل علي رضا بيك المستحيل لتوظيفها في الشركة براتب 45 ليرة.

لم تقتصر المساعدة التي قدّمها الرجل المسنّ إلى الفتاة الصبية على ذلك، فقد كان يريد القيام بوظيفة الأبوّة وحمايتها

من التهديدات التي تواجه الفتيات اليتيمات في هذا العمر... إنّ الشيء السيّئ الذي قد تتعرض له هذه الفتاة في هذه الأيام قد تتعرض له بناته أيضًا.

بدأ علي رضا بيك القيام بمهمة الأبوّة والحماية لِلَمان بحماسة كبيرة، لكنه رأى بعد أسابيع قليلة وبأسف شديد أنه قد تأخر على القيام بذلك. ربما كانت لَمان فتاة نظيفة، لكنها كانت خفيفة وجاهلة ولا تعرف مداراة نفسها، وكانت تمزح مزاحًا غير لائق مع موظفي الشركة.

نصحها علي رضا بيك عدة مرات بالإقلاع عن ذلك، فكانت الفتاة الشابة تسمعه وتعطيه الحق، وتُظهر له أنها خجلت مما قامت به، لكنها كانت تعود إلى مزاحها غير المناسب بعد مضيّ نصف ساعة.

وجاء يوم لم يعد علي رضا بيك يحتمل ما تفعله لَمان، وأوشك أن يوبّخها، لكن الفتاة الشابة أظهرت ردّ فعل عنيفًا، وقالت له إنها لا تحتمل أن يقوم أحد بمهمة وليّ أمرها، وإنها تشكره على مساعدته لها، وتدين له بالجميل كونه وظّفها في الشركة، لكنْ ليس من الصحيح تذكيرها بذلك بين الحين والآخر وتدخّلُه بكل شيء تفعله.

أحنى الرجل العجوز رأسه، وضحك ضحكة ألم، وقال: «أنت تعرفين مصلحتك يا ابنتي، لا تزعلي.» لم يذكر الرجل العجوز اسم لَمان منذ تلك اللحظة، ولم ينظر إلى وجهها أيضًا، لكنه

كان يغضب من نفسه عندما يرى تصرفاتها السخيفة التي تصل إلى حدّ الوقاحة ويقول في نفسه:

ـ لماذا سعيتُ لتوظيفها هنا؟!

لم ير أحد لَمان في الشركة منذ 8ـ9 أيام، لكنه لم يعرف لماذا لم يحبّذ الاتصال بها أو السؤال عنها.

لماذا أتت أم لَمان يا ترى؟ وماذا ستطلب منه؟ علمًا بأنه لم يرَ وجهها حتى تلك اللحظة.

رأى علي رضا بيك امرأة في الممرّ تلبس عباءة سوداء قديمة، لم يتشجّع لينظر في وجهها في بداية الأمر. قال:

ـ أهلًا وسهلًا سيّدتي، بماذا أخدمك؟

لم تردّ المرأة عليه فورًا، كان جسمها يرتعش، وكانت يداها ترتجفان كأنها مريضة بالملاريا. رفع الرجل العجوز عينيه مستغربًا فرأى وجهًا متعبًا وعينين متورّمتين من البكاء. بدأت تمرّ في ذهنه احتمالات سيئة، نسي كل حقده على لَمان وقال:

ـ كيف هي لَمان؟

أجابت المرأة وهي تبكي:

ـ لَمان بخير، لكنْ ليتها كانت ميتة.

رأى علي رضا بيك أنّ المرأة محقّة بعد أن عرف الحقيقة بعد قليل، وقال:

ـ نعم... ليتها ماتت بشرفها بدلًا من تعرّضها لهذه الكارثة.

الحقيقة كما يلي:

كان المدير مظفّر قد أغوى الفتاة، فطلبت لَمان إذنًا من والدتها قبل عشرة أيام وقالت لها:

- «أنا مدعوّة لعرس صديقتي في الجزيرة، وسأغيب ثلاثة أيام أو أربعة...

كانت قد أجهضت في أحد المستشفيات، وجُلبت إلى البيت يوم أمس، وهي عبارة عن عظم وجلد، وشرحت كل ما حصل لوالدتها كما حدث...

أصبح علي رضا بيك في عالم آخر، فقد تخدّرت جوارحه، وأغمض عينيه بيديه كأنه هو الذي أغوى الفتاة، وقال بخوف وخجل: «واخ واخ واخ!!»

كانت المرأة تتوسل إليه كأنها ستركع عند قدميه.

- ليس لنا أحد سواك... ماذا سيحلّ بنا؟ انصحنا... أنت أيضًا عندك بنات.

لم يتأثر علي رضا بيك إلى هذه الدرجة لأنه رجل دونجوان دمّر حياة الفتاة، بل كان تأثره نابعًا من كونه هو الوسيلة لحدوث ذلك...

هذا ما حدث طبعًا، فهل كان سيحدث لو لم يوظّف هذه الفتاة في الشركة؟!

قصدته المرأة العجوز لأنه صديق قديم للعائلة، ولأنها لا تعرف أحدًا غيره. أما علي رضا بيك فرأى في كلامها ما يقول له: «نظّف ما فعلتَه»... حاولَ الرجل العجوز مواساة المرأة بعد

أن عاد إلى رشده واستعاد طبيعته، وقال:

- أيتها المرأة، لا أستطيع أن أقول لك عليك ألّا تقلقي... أنا لا أعرف إلى أين ستصل الأمور، لكنني سأعمل ما في وسعي... إنّ مظفّر بيك شاب إنساني بحسب معرفتي به. وأعتقد أنّ ضميره لن يسمح له بتدمير فتاة شابة جهارًا، أتمنى أن يقبل بالزواج من لَمان، وبذلك يتلافى الخطأ الذي ارتكبه... لا تزعجي نفسك، الخير هو أصل الإنسان.

لم ترد هذه المرأة الجاهلة والساذجة التي عاشت بين أربعة جدران تصديق مقولة إن الخير هو أصل الإنسان التي ردّدها الرجل الإداريّ الملتحي، ولم تعرف لماذا رأت ذلك عندما خرجت من الشركة كما جاءت وهي تبكي...

4

على مظفَّر بيك أن ينزع شوكه بيديه، كان يجب أن يلتقيه علي رضا بيك في أقرب فرصة لتنظيف شرف أولئك البشر المظلومين، وشرفه في الوقت نفسه.

حسب علي رضا بيك أنّ تحرّش المدير بالفتاة التي أحضرها ووضعها تحت حمايته يعدّ بمثابة مسٍّ بشرفه بالذات... كان راتبه قد زاد 8ـ10 ليرات قبل عدة أشهر، حين سمع بأذنيه آنذاك أحد الموظفين وكان معربدًا وسكّيرًا يقول:

ـ طبعًا! لا نستطيع الحصول على أيّ زيادة على الراتب طالما أنّ وليّ النعمة موجود.

لم يكن علي رضا بيك يهتمّ لذلك الكلام حتى ذلك الوقت، لكنه يتذكره في الوقت الحالي بدهشة لأنه كان يحمّله معنى مختلفًا تمامًا. لم يكن جميع البشر غير مبالين مثله. فمن المؤكد أنّ الآخرين كانوا يعلمون بالعلاقة التي بين لَمان والمدير، وكانوا قد ظلموه باعتقادهم أن له يدًا في ذلك.

مَن يعرف ماذا سيثرثر الناس الذين ما زالوا يتظاهرون بأنهم يحترمونه من ورائه في الكواليس؟ هل سيحدث هذا معه أيضًا بعد هذا العمر على الرغم من أنه عاش حياة شريفة ونظيفة إلى هذه الدرجة؟ فكّر للحظة أنه سيترك ويذهب من دون أن يرى مظفَّرًا أبدًا. ومن المؤكد أن هذه الفكرة هي أنظف شيء يمكن القيام به، لكنه لم يتوقف كثيرًا عندها، لأنّ هناك أطفالًا في

البيت ينتظرونه. لم يكن يشكّ في أنّ المدير سيحلّ هذه المشكلة بطريقة تليق برجل شريف.

كان ذاك اليوم سيئًا على عكس اليوم السابق. كانت غرفة المدير تعجّ بالناس كخليّة النحل، وكان علي رضا بيك يخشى أن يفقد شجاعته إذا لم يقابل مظفّرًا فورًا. فقد فكر فيما بعدُ وتخيّل بتردد ثقل الليلة التي ستمرّ عليه، لذا قرر الانتظار حتى تحلّ الظلمة إذا اقتضى الأمر.

لم يعمل الموظف العجوز أيّ شي خلال ذلك اليوم، لأنه انشغل بتحضير ما سيقوله لمظفّر وهو جالس وراء منضدته... لم يستطع ضبط نفسه عن البكاء، وكان يمسح دموعه بطرف المنديل بين الحين والآخر.

***

كان علي رضا بيك يأتي إلى عمله في الساعة التاسعة صباحًا، شتاء وصيفًا، سواء أكان لديه عمل أم لم يكن. وفي المقابل لم يكن يخرج مع بقية الموظفين عند نهاية الدوام لأنه كان يعمل حتى مغيب الشمس.

وعندما رآه المدير في تلك الساعة أمامه قال له:

- يا أستاذي! أنت تأخرت أيضًا؟ أنت لا ترحم نفسك... إذا كان لديك عمل فيمكنك تركه ليوم غد.

كان مظفَّر بيك يعامل الموظف العجوز بطريقة مختلفة عن بقية الموظفين الآخرين؛ لأنه كان يعرف أنه لن يكون مشاكسًا مهما

جامله، فقام كعادته بفائق الاحترام وأجلسه بجانبه وضيّفه سيجارة.

كان علي رضا بيك قد نسي فجأة الخطاب الذي كان قد أعدّه منذ عدة ساعات.

أصبح رأسه فارغًا، وفي مقابل ذلك كان يشعر بضرورة النطق بشيء ما، وكان يتأتئ بأشياء اعتباطية...

كان مظفَّر بيك لا يفهم ما يقوله علي رضا بيك وما يريده... وكان يستمع إليه وهو يبتسم، بينما يكتب بعض الأرقام على ظرف موجود أمامه... لكن بعد قليل بدأت ملامحه ومواقفه تتغير بعد أن فهم ما يتحدث عنه علي رضا بيك.

كان الرجل العجوز يتوقع أن يخجل مظفَّر بيك ويحمرّ وجهه. لكن على العكس من ذلك، فقد أظهر موقفًا شديدًا كرجل يستعدّ للقتال، وكان ينظر إلى علي رضا بيك نظرة ثاقبة ما فاجأه...

فهم الموظف العجوز رغم انقباضه واندهاشه ممّا يدور في رأسه أنَّ الشخص الذي يقف أمامه هو إنسان مختلف تمامًا، وأن ما فعله طوال هذه السنوات عبارة عن وهم، وأن الاحترام والمعاملة الحسنة التي تلقّاها منه حتى تلك اللحظة نابعان من اعتباره رجلًا عجوزًا مهذبًا لا يتدخّل في شؤون أحد ولا يؤذي أحدًا.

نعم، كانت تلك خيانة عظمى، وكأن الرجل قد تحدّث مع صخرة عن بُعد، ولم يفهم بعد أنّ الأجوبة الناعمة التي أخذها منه هي عبارة عن صدى لأصوات مرنة ورقيقة... وها هو الآن يلمس الصخرة ويحاول معرفة المعدن الذي صنعت منه...

كان مظفَّر شخصًا لا يسمح لأحد بحشر أنفه في ما يفعله، أو بالتلاعب بحياته ومصالحه، وكان علي رضا بيك لا يتراجع عما يفعله على الرغم من أنه يعرف جيدًا طبيعة مظفَّر، وكان يدور في حلقة مفرغة كأنه دخل متاهة لا يستطيع الخروج منها...

قطع سيادة المدير كلامه فجأة، وبعد أن انتظر قليلًا، قال:

- لقد فهمت. دعني أتحدث قليلًا، أنت لا تشكّ في محبتي واحترامي لك بالتأكيد. أنت إنسان جيد فوق العادة، ومتميّز إلى درجة أنه لا يوجد مثيل لك في هذا العصر. لن أكذب عليك. قصة لَمان حقيقة، وكان يجب عدم حدوث هذا الشيء. لكن ماذا أفعل؟ لقد جرى ما جرى... صدِّقني أنّ هذه الحادثة ليست ضخمة كما تتخيّلها. أنت تقترح عليَّ - بحسب ما فهمت من حديثك - الزواج بالفتاة، دعني أكن صريحًا معك... لا أستطيع القيام بذلك، وبالأحرى فإن ذلك لن يكون عملًا صحيحًا؛ لأنني لست الشخص الأوّل الذي أغوى لَمان خانم.

هوت هذه الكلمة على علي رضا بيك كالسوط، واستوى الرجل العجوز على الكرسيّ، وأراد القول:

- يا بنيّ!... حرام! إنّ لَمان لا تزال فتاة صغيرة...

لكنّ مظفَّر بيك قاطع كلامه مرة أخرى، وابتسم لشدّة سذاجة الرجل العجوز وقال:

- يا سيّد كن واثقًا بأنني لا أكذب عليك، لَمان ليست فتاة بريئة كما تتصور، لأنها كانت تضاجع أيَّ شخص تقابله (الذاهب

والآتـي)، وإذا أردتَ فإنني قادر علـى إثبات ذلك. حتى إنني كنت أشـكّ في أنني أنا والد الطفل الذي كان سيولد... لكن لا أعـرف لمـاذا رأوا أنّ هـذا الشـرف هو لي أكثـر من الآباء الآخريـن، ربمـا بسـبب موقعـي الوظيفـي! آخ يـا علـي رضا بيك... ليت العالم كان كما تتصوره!

نهض علي رضا بيك وهو يرتجف على الرغم من إصرار المدير:

ـ ألا تسـتطيع فعل شـيء من أجل هذه الفتاة؟ إنني أسألك هذا السؤال كوني لا أزال أثق بنظافة ضميرك.

ـ لا أسـتطيع فعل شيء سوى تقديم المساعدة المادية لها، وقد تحدّثتُ معها بهذا الصدد.

ـ هذا فقط؟

ـ هـل أنـت واثق بأنـه يمكن تقديم مسـاعدة جدّيّة لشـخص ما أفضل من المال في هذه الأيام؟!

كان الرجل الشابّ قد قال ذلك بشفقة خفيفة واستهزاء، لكنه غيّر موقفه وقال له بجدّيّة لطيفة:

ـ أنت أسـتاذي، لذلك فأنت بمثابة والدي. أنا سأسألك سؤالًا، هل ترى أنه من المناسـب لي الزواج بامرأة بهذا الوضع؟ أنا أسألك هذا السؤال لأنه ليس لديّ شكٌ في ضميرك وإنسانيتك كمـا قلتَ أنت قبل قليل... أنت أب، فهل كنتَ سـتطلب من ابنـك فِعْلَ ما طلبتَه مني لو فعل ما فعلتُه؟! هل كنتَ سـتقبل بفتاة هي بقايا مغامرة مثل لَمان عروسًا لابنك؟

اهتـزّ علي رضا بيك هزّة قويّـة، وأغمض عينيه للحظة وفكّر.. هـل كان سيُدخل فتـاة مشـبوهة مثل لَمـان إلى بيته وبيـن أولاده الأبريـاء لـو كان ابنـه هـو الذي فعل هذا الشـيء فعـلًا؟ هل كان سيقول لها يا كَنَّتي؟!

كان الرجـل العجوز سيخسـر قضيّته فجأة لـو قال «لا»، لكن على الرغم من ذلك فضّل خسـارة هذه القضية التي لا أمل فيها بدلًا من الكذب، وقال بموقف يائس:

ـ الحق معك، ما كنتُ سأوافق على ذلك.

كان المديـر مسـرورًا كونه أمسـك به من نقطـة ضعفه، لذلك أراد حسم المشكلة، فقال:

ـ إذًا هل نسيت أنك أستاذي وبمكانة والدي؟

كان يحـدّق في عيني الرجـل العجوز وينتظر الجواب المطلق الذي يريده.

لكنّ علي رضا بيك أحنى رأسه بحزن وعناد وقال:

ـ لـو فعل ابني شـيئًا كهـذا، لكنت فعلتُ شـيئًا واحـدًا: رفضته ورفضت مقابلته مرة أخرى.

ـ يا علي رضا بيك دعنا نكن واقعيين قليلًا... كانت هذه الفتاة سـتضرب ضربتهـا، فهـي تريـد الـزواج منـي، لكـنّ ذلـك لم يتحقـق. وفي مقابل ذلك سأسـاعدها قدر الإمكان... سـأزيد راتبهـا، وسـأعطيها تعويضًـا، وسـتتخلص هـي ووالدتهـا من المشكلات التي تعيشانها.

وتوجّه المدير نحو علي رضا بيك... وراح يربّت على كتفيه بطريقة خفيفة يريد إرضاءه:

ـ كم هو قلبك أبيض! كن واثقًا بأنّ هذا كثير... إنك تحزن بصدق.

كان الرجل العجوز يبتسم بحزن من دون أن يرفع عينيه عن الأرض:

ـ أحزن... من المؤكد أنّي أحزن جدًّا... لكن ليس من أجل تلك الفتاة كما تظنّ، بل أحزن على أولادي.

ـ أولادك؟! وما علاقة ذلك بهم؟

ـ لأنّي، وبناءً على هذه الحادثة، مضطرّ إلى فراقك... وكأنّ الأطفال سيظلّون جياعًا...

كان مظفَّر بيك قد أدرك فورًا أنّ هذا ليس دلالًا أو تهديدًا محضًا. ولكن بدا له كأنه لا يفهمه ولا يصدّقه، قال:

ـ ماذا تقول؟ ماذا فعلتُ لك؟ وما السوء الذي صدر مني؟

بدأ علي رضا بيك يشرح قراراته التي لا يمكن أن تتبدل بكل هدوء وانتظام بدلًا من الفوضى التي جرت قبل قليل:

ـ على العكس، أنا لم أرَ منك إلا كل خير... مددتَ لي يدَ العون في أصعب وقت... وعاملتَني دائمًا بكل لطف واحترام، ولهذا أنا ممتنّ لك. لكن كيف لي أن أبقى هنا بعد هذه الحادثة؟! تذكّر ما قلتُه لك قبل قليل، قلتُ لك: «لو فعل ابني شيئًا كهذا، لكنت فعلتُ شيئًا واحدًا: رفضته ورفضت مقابلته مرة أخرى» أليس كذلك؟! ولأنك بمثابة ابن آخر لي، فهذا يعني أني مجبر على رفضكم... أنتم تحرّشتم

بفتاة دخلت إلى هنا بواسطتي، وأنا أصبحت في موقع إنسان جلب لكم امرأة... حتى لو لم تكن الحقيقة كذلك، كيف لك أن تشرح ذلك للجميع؟ الخبز الذي سآكله أنا وأولادي، كما أمّ لَمان، من هذا الموقع لا يمكن أن يكون خبزًا نظيفًا.

ارتبك مظفَّر بيك بشكلٍ جدّيّ أمام جدّيّة الموضوع، كان يريد أن يقطع حديثه وهو يقول:

ـ يا أستاذي، أرجوك، اسمح لي بالكلام...

لكن علي رضا بيك تابع بعناد وهو يلوّح برأسه:

ـ لا داعي، أعرف ما ستقوله، قد تكون هذه الأشياء صحيحة... لكنها لا يمكن أن تدخل رأسي العجوز...

عندذاك أدرك المدير أنه لا يمكن كسر عناد الموظف العجوز، فقال:

ـ يا أستاذي، اسمح لي بأن أقدّم لك مساعدة بطريقة أخرى على أقلّ تقدير.

قال علي رضا بيك وهو يبتسم بطهارة ولد صغير:

ـ أنا مُجبر على عدم قبول أيّ شيء منك... لا تحزن، ما باليد حيلة، أنا لم أمت بعد، سنجد حلًّا.

ـ نلتقي مجدّدًا، أليس كذلك؟

ـ بالتأكيد يا بنيّ، لا شك في ذلك...

كان علي رضا بيك في أثناء تفوّهه بهذا الكلام يعلم جيّدًا أنه لن يواجهه مرة أخرى.

5

في تلك الليلة لم يجد علي رضا بيك حافلة لأنه تأخر عن آخر باخرة، وهذه ليست المرة الأولى التي تحدث له، فقد كان في الأيام التي يتأخر فيها في الشركة يتنازل عن أربعين قرشًا أو خمسين ويستقلّ «حنتورًا»... ماذا يستطيع أن يفعل؟! هذا من مقتضيات العمل...

وحين خرج من المرفأ في ذلك المساء، سار نحو موقف السيارات شاردًا، لكنه تذكّر فجأة أنّه الآن رجل عاطل عن العمل وليس له راتب، فلم يعد له حق في مثل هذه الكماليات. عندذاك غيّر طريقه، وكان ثلاثة أشخاص من بائعي العربات أو أربعة يصرخون بملء حناجرهم ليبيعوا ما تبقّى لديهم من أطعمة وبضاعة.

أمضى علي رضا بيك قليلًا من الوقت أمامهم. لم يبقَ لديهم إلّا أسوأ أنواع البضائع، لكنّ قيمتها مقارنة بالصباح انخفضت إلى النصف، سيقوم بكل ما عليه شراؤه في هذه الساعات منذ الآن. آه، لماذا لم يكن يفكّر في مثل هذه الحسابات الدقيقة من قبل؟!

مضى في شوارع أوسكودار التي كان الهدوء يسيطر عليها شيئًا فشيئًا، ثم بدأ يصعد طلعة مقبرة قرجه أحمد. لم يحبّ علي رضا بيك المشي في يوم من الأيام منذ وُلد، وكان صدره يضيق كلما رأى الطرقات المرتفعة.

كان يتحلى بقوة غريبة في جسده على الرغم من أنه كان يجب أن يكون متعبًا جدًّا في مثل تلك الليلة. فكّر لوهلة أن يجلس على أحد الأحجار على جانب الطريق، لكنه لم يجرؤ على ذلك. لم يكن ذاك الخوف ناتجًا عن الهدوء الذي كان يخيّم على الطريق وعلى المقابر التي تحيط به، بل على العكس من ذلك، فعلى الرغم من أنه كان رجلًا كثير التوهّم على الدوام ويحمل في داخله الكثير من اللامبالاة إلّا أنه كان يحمل أيضًا عدم الخوف من أي شيء. لكنه رأى أنه إذا جلس بين أشجار السرو وبدأ بالتفكير فإنّ ثمّة يأسًا لم يكن يتوقعه سيأتيه من بين أشجار السرو ومن أعماق الظلام الذي يحيط به، وأن هذا اليأس لن يفارقه مرة أخرى.

كان منزل علي رضا بيك في تلك الليلة كأنه أكثر ضياء من أي وقت مضى، ظن في البداية أن ذلك وهم ناتج عن مشيه في الظلام مدة طويلة، لكنه عندما اقترب منه أكثر فأكثر لاحظ أنّ ما رآه كان حقيقة. كان هناك وضع غريب وغامض في منزله تلك الليلة، فباب الحديقة كان مفتوحًا، وفي الداخل وبين الأشجار كانت الفوانيس مضاءة... حتى عندما كان أبعد من ذلك سمع عائشة وهي تصرخ وتقول بصوتها الرقيق: «ها هو قادم!» بناته وـ الأغرب من ذلك ـ زوجته التي لا تخرج إلى الحديقة إن لم يكن الأمر مهمًّا كنّ يركضن نحو الشارع لاستقباله. ما سبب هذا يا ترى؟! ألم يكن واجبًا على هذا المنزل في تلك الليلة أن يستقبله بعتمة وبهدوء أكثر من أيّ وقت؟!

لم يسألهنّ علي رضا بيك عمّا يحدث على الرغم من شدّة استغرابه ولا هنّ تفوَّهن بأيّ كلمة... كانت عائشة تُمسك يد والدها بلهفة وتشدّه إلى الداخل بسرعة. وأخيرًا بشّرته النسوة على رأس مائدة شهيّة ممدودة تحت العريشة في الحديقة أنّ ابنه البكر شوكت فاز في المسابقة، وأنه تمّ تعيينه موظفًا في مصرف براتب مئة ليرة.

رفع علي رضا بيك عينيه للمرة الثانية إلى السماء في ذلك اليوم:

ـ ما هذه المصادفة يا ربي؟! مئة ليرة؟!

إنه مبلغ يساوي الراتب الذي خسره تقريبًا. كان يحسّ بنفسه كأنّه جنديّ أصيب وهو يحارب فنهض آخر من المكان الذي وقع فيه ليحمل الثقل عن كتفيه والبندقية من يديه ويواصل المعركة.

كان علي رضا بيك قد ربّى ابنه منذ أن كان صغيرًا على أساس قوله له:

ـ أنت ربّ هذه العائلة من بعدي، أنتَ من سيأخذ مكاني بعد وفاتي!

ضم الرجل العجوز رأس ابنه بوجهه النحيف الحنطيّ إلى صدره بحيث لم يستطع إخفاء دموعه. لم يكن الأولاد حتى ذلك اليوم قد رأوا أباهم يبكي... ظنّوا جميعهم أنّ هذه الدموع نابعة من الفرح والفخر.

6

كان شوكت الابن الأكبر لعلي رضا بيك، قد دخل عامه الحادي والعشرين قبل شهرين، كانت دراسته جيدة. وعلى كل حال ـ وكما أولاد الموظفين المترحّلين جميعهم ـ لم يكن ذلك كله بفضل المدارس التي لم يتابع فيها دراسته إلا سنتين أو ثلاث سنوات، بل كان بفضل جهود والده.

كان علي رضا بيك يلعب مع ابنه هذا كما كان يلعب في حديقته المليئة بالورود، ويحاول نقشه وفق صورة الإنسان المتكامل الذي كان يعيش في خياله. لكن شوكت تعلّم أشياء كثيرة لا يصلح جزء كبير منها ليومنا هذا، حتى إنّها لم تكن مفيدة لأي يوم من الأيام. كان ينقصه ـ في رأي علي رضا بيك ـ دراسات عليا لكي يكون إنسانًا متكاملًا، لكن القدر ـ مع الأسف ـ لم يسمح له بذلك. على الرغم من ذلك لا يمكن القول عن شوكت إنه شبه ناجح؛ لأنّه يجاري في عمره هذا كل الشباب الذين درسوا في أفضل المدارس، ليس في اسطنبول فقط، بل في أوروبا أيضًا. لقد كان ينقذ والده العجوز في قمة ساعات ملله، وفي الوقت المناسب، وكان الدليل الأبرز على ذلك آخر نجاح له، والذي يشبه المساعدة القادمة من السماء.

لكنّ الشغل الشاغل لعلي رضا بيك لم يكن ذكاء شوكت، بل قلبه الرقيق. كان ذلك الرجل العجوز يشكّ في كل شيء في الكون ولا يشكّ في أخلاق ولده... كان شوكت بالنسبة إليه

قطعة ماسٍ لا يمكن لقوى الأرض أن تكسرها أو توسّخها.

كان السبب الرئيس لركل علي رضا بيك باب شركة «ألطن يبراك» من دون تردد هو ثقته بهذا الولد، لكنه لم يكن يأمل منه أبدًا أن يصل به الحدّ إلى مساعدته بهذه السرعة.

كان شوكت معتدًّا بنفسه كوالده، وقد أخفى عن عائلته أنه تقدّم للمسابقة خوفًا من احتمال فشله وضياع اعتباره.

أمّا بالنسبة إلى الأنوار في المنزل والمائدة التي في الحديقة، فقد كان هذا وعدًا قديمًا قطعه شوكت لأبيه عندما أخذه إلى المدرسة في أول يوم، حين قال له:

ـ شوكت! أريد منك وليمة ديك روميّ عندما تكبر وتبدأ حياتك العملية.

على الرغم من السنين الطويلة التي مضت لم ينسَ شوكت وعده، فعندما قرأ اسمه في قائمة الفائزين في المسابقة ذاك الصباح في الجريدة كان أول عمل له الذهاب إلى السوق وشراء ديكين روميَّين.

لقد كان لكل فرد من أفراد المنزل، كبيرًا وصغيرًا، حصة في إعداد هذه المائدة، فأعدّت ليلى ونجلاء المائدة، وجمعت عائشة الورود باقة باقة وجاءت بها...

نسي علي رضا بيك اليأس الذي كان يخيّم عليه كلّيًّا، لكنه عندما كان يفكر في الجلوس على الكرسيّ المعدّ له وقف كأنّ هناك فكرة تراوده، ثم ابتسم لابنه بانتباه، وقال:

- شوكت! سنغيّر أماكننا، أنت ستكون الأب، وأنا الولد الأكبر للعائلة.

استغرب الجميع كلام الأب، لكنه أصرّ وأمر ابنه بالامتثال لطلبه وقال له وهو يضغط على يده:

- هكذا أريد... أنت مدين لي بالطاعة.

أَجْلَسَ علي رضا بيك ابنه شوكت مكانه مثلما يفعل حاكم اضطُرّ إلى ترك العرش لولده، وجلس إلى يساره بجانب زوجته، وقال:

- سيكون هذا المكان له عاجلًا أو آجلًا، هل سمعتم يا أولاد؟!

سوف يأتي وقت ستعترفون به كأب بدلًا مني، وستحترمونه.

لم يتركهم الرجل العجوز يُحسّون بالمصيبة التي حلّت به إلا بالمعنى الثقيل الذي قدّمه بصوته وهو يقول هذه الكلمات الأخيرة.

لم ير داعيًا لبثّ الرعب والخوف في نفوس الأم والأولاد منذ تلك الليلة، لا سيما أنه كان من الواجب أن ينام شوكت مرتاحًا ومسرورًا ليلة أخرى قبل تلقّيه نبأ المسؤولية الثقيلة التي ألقيت على عاتقه.

7

اعتاد علي رضا بيك النوم باكرًا هو وزوجته وابنه «الكبير»، لقد كانوا مجبرين على ذلك بسبب أعمالهم المختلفة في البيت والشارع. أمّا الفتيات فلم تكن هموم الدنيا قد نزلت عليهن بعد، فلا ضَرَرَ في أن يمضين بعض الساعات من الكسل في الفراش.

على الرغم من أن علي رضا بيك انضمّ إلى كسالى هذا البيت في ذلك الصباح إلاّ أنّه نهض قبل شروق الشمس أيضًا، وكما في كل يوم أخذ كتابًا بيده وجلس أمام النافذة، لكنه لم يستطع القراءة... أخذه التفكير أمام صفحة مفتوحة حتى أوقدت زوجته النار وأعدّت له شاي الصباح.

كانت خيرية خانم قد بدأت بإعداد وجبة غداء زوجها بعد الفطور عندما قال لها علي رضا بيك وهو غاضب:

ـ لا داعي يا امرأة... لا تتعبي نفسك...

قلقت خيرية خانم التي تعرف أنه لم يهمل عمله يومًا واحدًا حتى في الأوقات العاصفة التي لا يمكن أن تبحر فيها العبّارة، فسألته:

ـ هل أنت مريض؟

ـ لا، لكنّي لن أذهب...

كان علي رضا بيك ـ وهو يقول ذلك ـ يشبه الأطفال المذنبين الذين لا يريدون الذهاب إلى المدرسة بسبب غضبهم من أساتذتهم.

- لماذا؟

داعب الرجل العجوز وجه شوكت الذي جلس بجانبه قبل قليل، وقال محاولًا عدم إظهار ارتباكه:

- لديّ مسألة سآخذ رأي شوكت فيها... ابني سيحكم بعد أن يصغي إليّ جيّدًا... وأنا مستعدّ لقبول ما سيقوله...

كان علي رضا بيك يُخرج الكلمات بصوت وبأداء لا يمكن لزوجته وابنه معرفة ما إذا كان ذلك الحديث على سبيل المزاح أو الجدّ، فكانا يتبادلان النظرات.

شرح الرجل العجوز الحادثة كما وقعت، كان يخفض من صوته ويخطف بصره لجهات أخرى كلما وصل إلى الجانب المعيب في القصة، لأنه غير معتاد على الكلام بأشياء فاضحة مع ابنه. لم يكن ممكنًا قراءة أي شيء في وجه خيرية خانم إلّا الاستغراب. لكنّ شوكت كان يتشوّق رويدًا رويدًا وهو ينصت لأبيه، وعيناه السوداوان أخذتا تسطعان بنار غريبة. وعندما أنهى والده الكلام بقوله:

- هل يمكنني فعل شيء مقابل هذا الوضع إلا الاستقالة؟

قال من دون تردد:

- خيرَ ما فعلت يا أبي!

كان هذا الصوت يحمل في طيّاته عصيانًا إلى درجة أنّ علي رضا بيك صعب عليه ضبط نفسه قبل أن يحضن ابنه وهو يبكي...

ثم سأل سؤاله بأداء خجول وهو محنيّ الرأس:

ـ لكن هناك شيء آخر يجب أن نقوله يا بنيّ... هذه الشركة كانت آخر باب رزق بالنسبة إليّ... أنت تعرفني... لا أحبّ أن أجلس مكتوف اليدين... ربما لن أستطيع إيجاد عمل... أخواتك لم يشققن طريقهن بعد... وراتبي التقاعديّ قليل جدًّا... ووِزر العائلة سيقع على عاتقك... أليس هذا عبئًا ثقيلًا عليك؟

كان شوكت كمن يتمرّد على تردّد والده، فأخذ يضرب على صدره بالجرأة اللامحدودة لفتى في سنّ الحادية والعشرين. وقال:

ـ كيف تستطيع قول ذلك يا أبي؟! هل عندك شكّ فيّ؟! سأعمل عملًا آخر أيضًا إذا اقتضت الضرورة... سنجعل أخواتي ـ في كل الأحوال ـ يشققن طريقهنّ!

فهم شوكت الآن لماذا جلس ليلة أمس مكان أبيه على المائدة... ناهيك عن الانزعاج من الحادثة، كان مفعمًا بالفخر لكونه أخذ مكانة أبيه في هذه السنّ. قبّل الأب والابن بعضَهما بعضًا بكل شوق.

الجزء الثاني

8

حين بقي علي رضا بيك وحيدًا مع زوجته قال من فرحته وهو يضحك:

- أيّ سعادة هذه بالنسبة إلى أب؟!

قالت خيرية خانم المنشغلة بتنظيف الطاولة، من دون أن تنظر إليه:

- نعم... هكذا...

كانت المرأة منزعجة وتغمغم كلمات غير مفهومة. شكّ علي رضا بيك في الأمر وسألها:

- لماذا تجيبين بهذه الطريقة؟

ركّزت خيرية خانم قليلًا وقالت:

- لم أقلْ شيئًا، قلت: نعم هكذا!

- لا... ولكنك قلت ذلك بشكل مختلف.

تركت المرأة عملها والتفتت إلى علي رضا بيك وقالت له:

- لا تحزن، ولكنك كلّما كبرت أصبحت أكثر غرابة.

- قوليها بصراحة أكثر إني قد أصبحت خَرِفًا!

عندما قال ذلك كان ينتظر من زوجته ردًّا، ولكنّها رجعت إلى عملها من دون أن تجيب، لقد أصبح الحديث جدّيًّا، وبدأ

يتنابه خوفٌ أخذ يضغط على قلبه لا يعرف له سببًا.

لم يكن علي رضا بيك يشعر بالارتياح عندما كان يعطي شخصًا ما نقودًا شفقة أو عطفًا، ولا حتى عندما كان يشتري شيئًا غير ضروري لمنزله، فقد كان ينتابه شعور غريبٌ إن لم تقل له زوجته: لا عليك... لا تحزن، ماذا سنفعل...؟ حصل ما حصل...

إلا أنّ خيرية خانم كانت امرأة لا تقبل المزاح خاصة في الأمور التي تضرّ بمصالح العائلة. كانت ماديّة غير مبذّرة، وما كانت تهنأ إلا بإزعاج زوجها وجعله يندم على فعلته، حتى إنّ شجارًا كان ينشأ بينهما بسبب ذلك. وقد كان علي رضا بيك سريع الغضب كالأطفال لأنّ زوجته هي الشخص الوحيد الذي يجرؤ على الشجار معه وجهًا لوجه، لذا كان يصرخ ويقول:

- أنتِ هكذا أصلًا... لا تتركيني أشعر بالسعادة... أتمنى الموت كي ترتاحي!

وبعدما كانت خيريّة خانم تزعجه، وتجعله يصرخ، ويندم على الساعة التي وُلد فيها، كانت تغيّر سياستها.

ذلك اليوم شعر الرجل العجوز بتغيُّر غريب في زوجته، وفي حقيقة الأمر هي أيضًا كانت في داخلها لا تصدّق أنّ ما كانت تفعله هو الصواب.

إلا أنَّ بعض الكلمات الطيّبة من زوجته كانت ستهدّئه إلى حدٍّ ما، ولكنها عنيدة لا تدرك أنَّ علي رضا بيك كان يعيش أصعب يوم في حياته وأسوأه، فكانت تواصل عقد حاجبيها

وعبوسها. ثمَّ قال علي رضا بيك بعد أن صمت قليلًا:

ـ يا خانم، انظري إليّ! طريقة معاملتك هذه لي اليوم، لن أنساها حتى أموت... حرام عليك.

رجعت إليه خيرية خانم مرة ثانية، وقالت له بكلّ صدق وبمشاعر يشوبها الحزن وهي متأكدة أنَّ أسلوبها هذا سيؤثر فيه بشكل أقوى من كلّ أنواع التوبيخ:

ـ لِمَ تقول ذلك يا علي رضا بيك؟ من يسمعك يظن أنّك فَرِحٌ لرتبة حصلت عليها أو ما شابه ذلك... أساسًا كنّا نعيش بالمئة والخمس عشرة ليرة التي كنت تحصل عليها من الشركة بصعوبة بالغة... واليوم قلتَ إنك أضعتَها من بين يديك... هذا يعني الجوع بالنسبة إلينا... هل كان يجب عليّ أن أضمّك إلى صدري؟... كن منصفًا قليلًا!

بلع علي رضا بيك ريقه بصورة مضحكة حيال عدم إيجاده كلمات يقولها، وقال:

ـ نعم، ولكنّه الشرف... لقد خرجنا بشرفنا!

كلمة الشرف هذه كانت دائمًا تؤثر في ربة بيت شريفة ونقيّة، ولكن يبدو أنّ هذه الكلمة فقدت قوّتها ساعةَ دقَّ الجوع بابهما.

ـ كن منصفًا يا علي رضا بيك... أنا زوجتك طوال هذه السنين... إنْ نظرتَ إليّ كامرأة عديمة الأخلاق فهذا عيب وحرام... أنا أيضًا إنسانة شريفة مثلك... ولو كنت مكانك لغضضت النظر عنها لأجل أولادي.

أصبح علي رضا بيك غاضبًا نتيجة هذا الكلام وبدأ بالصراخ:

ـ ماذا قلتِ...؟ ماذا قلتِ؟ أعيديها مرة ثانية... كنتِ غضضتِ النظر عن هذا الفعل؟ حرام!! حرام عليك!

رفعت خيرية خانم نظرها إلى السقف وقالت:

ـ رويدَك... ستوقظ الأولاد...

ثم تابعت بالوتيرة نفسها من الحزن:

ـ نعم يا علي رضا بيك! لقد قلتُ كلَّ ما قلتُه... ولأجل أولادي سأتحمّل كلَّ شيء... لأننا إذا بقينا من دون طعام، فلن يكون هناك شرف نخاف عليه...

نزلَت هذه الكلمات على رأس علي رضا بيك كالصاعقة. فقد تذكّر كلامًا قاله له أحد الأشخاص في الشركة قبل يوم:

«الشرف بلا نقود لا يعيش إلا جيلًا أو جيلين.»

هذا الكلام الذي يحمل المعنى نفسه قد خرج من فم شخصين بعيدين كل البعد عن بعضهما...

أية صدفة مخيفة جعلت هذين الشخصين اللذين لا يعرف أحدهما الآخر يتحدثان باللغة نفسها؟

في حين كان علي رضا بيك بأفكاره المشتتة يبحث عن جواب لهذا الغموض كانت المرأة تتكلم بشكل مؤلم:

ـ لا تحزن يا علي رضا بيك... سأقول لك كلَّ ما في داخلي... لقد بنيتَ مصالح أولادك على الأوهام... أنت تعتقد أن دورك انتهى لأنهم أصبحوا في الخامسة عشرة وفي العشرين...

الأمر ليس كذلك... دورك يبدأ الآن... لقد كانوا سابقًا أطفالًا صغارًا يجلسون في المكان الذي تأمرهم أن يجلسوا فيه، ويأكلون ما تأمرهم أن يأكلوه... لو أعطيتهم صفّارة رخيصة أو دمية مكسورة لظنوا أنّ العيد قد جاءهم، وكأنك أعطيتَهم الدنيا وما فيها... هؤلاء الأطفال أصبحوا الآن بالغين، يفهمون ويطلبون كل شيء... أمّا ما هي مطالب كل واحدٍ منهم؟ فلا أعلم، ولكن يبدو أن هناك خطأً في تربيتهم...

- هل خرِفتِ يا امرأة... أولادي كالملائكة إلى درجة أن...

- وأنا لا أنكر ذلك... أولادنا بوضعهم الحالي كالملائكة... ولكن من جهة ثانية نحن فتحنا عقولهم أكثر من اللازم... كما قلت هم يشاهدون أشياء يتمنون الحصول عليها... وفي ظل هذا الوضع، هل سيبقون كالملائكة في المستقبل؟ وحتى لو ظلوا هكذا أفلن يشتهوا؟ أنتَ حتى الآن كنت تعمل في الخارج، ولم تكن ترى ما يحدث في المنزل عن قرب... وها أنذا أخبرك يا بيك... هناك خطر ينتظر أولادنا... وقد أعذر من أنذر...

أدرك علي رضا بيك أنّ هذه القضية لا تُحَلّ بالصراخ، فبدأ بالتوسل:

- زوجتي الحبيبة...لا تفكّري بهذه الطريقة... ولا تظنّي أني لم أفكّر في هذه الأمور! ولكنك سمعتِ ابننا يقول إنه جاهز للتضحية من أجل أخواته، ولا أعتقد أنك تشكّين في ذلك؟

- إذا أردتَ الحقيقة، نعم أشكّ يا علي رضا بيك... مهما حصل

فهو ولد يافع... وله مطالب تناسب عمره. وحتى لو لم تكن له مطالب، ألا تعتقد أننا سنكون قد أذنبنا بتحميله هذا العبء، وهو ما يزال طفلًا صغيرًا؟

ولو استمّر هذان الزوجان على النقاش طيلة عام كامل، لم يكونا ليتوصّلا إلى اتفاق على نقطة واحدة... ومما لا شكّ فيه، أنّ علي رضا بيك كان من أفضل الآباء... فهو لم يرضَ أن يلحق أولادَه أيُّ أذًى بسببه... ولكنه كان مقتنعًا بجعل ابنه قائدًا للعائلة، وهذه القناعة أضفت عليه شعورًا بالسعادة، فهو يرى أنّ العائلة كالمملكة.

وبناءً عليه، فإنّ تذمُّر شوكت من عبء العائلة، كان أمرًا مستغربًا من إنسان أصبح ملكًا، ووجد أنّ التاج الذي يضعه على رأسه ثقيل.

ولكن خيرية خانم لم تستطع أن تُدخل هذه الحِكَم النبيلة إلى دماغها بأيّ شكل من الأشكال، فقد كانت تغلي كالبركان في كل دقيقة.

ـ بقيتُ أصدّق كلامك حتى اشتعل رأسي شيبًا... ما أدراني؟ كنت أقول: رجل ذو هيبة، كاتب ومتعلم... لا بدّ أنّ لديه المعرفة الكافية. ولكن كفى... طالما أنَّ تـرْك العمل هو من أجل الشرف... اتركه... ولكن لا تنسَ أنّ الغلاء يزيد يومًا بعد يوم... انظر، لم أعد أستطيع أن أخفيَ أكثر من هذا. فأولادك الملائكة وصلوا إلى مرحلة لن نستطيع أن نضبطهم فيها...

فإذا تساقط أولادنا واحدًا تلو الآخر بسبب الفقر، فسأضع يديّ على عنقك... وحتى لو متَّ فلن أتركَكَ ترتاح في قبرك.

دخلت المرأة إلى المطبخ، وهي تبكي بصوت عالٍ غير آبهة أن يسمعها أولادها...

أمّا علي رضا بيك فقد جمد في مكانه...

هذا يعني أن زوجته الليّنة الرأس طوال تلك السنوات، قد رفعت لواء التمرد أخيرًا.

كان يتجول في الحديقة وبيده دلوٌ، يحرث النباتات ويسقي المزروعات ويتخلص من حشرات الزرع، ولكنه كان يفكّر في أولاده على الدوام. لا شكّ أن زوجته كانت امرأة جاهلة، ولكنّ خوفها لا يبدو من دون سبب، فما تفوّهت به كلام لا يمكن تجاهله. هل الأولاد فعلًا في خطر؟ والأسوأ من هذا كلّه، هل كان هناك خطأ في تربيتهم؟

بدايةً تخيّل ابنته الكبيرة فِكرت ماثلةً أمام عينيه:

لقد كانت فتاة صغيرة الحجم في التاسعة عشرة من عمرها... ولكنها كانت برزانتها تعادل شخصًا في الثلاثين من عمره... فهي أهمّ مساعد لوالدتها في المنزل، وعلى الرغم من فرق العمر بينهما كانت كالأم الثانية لإخوتها. لم تكن فكرت جميلة، كانت هناك بقعة سوداء في عينها اليمنى، وهذه البقعة بقيت كذكرى لها بسبب مرض في العين كانت تعانيه تلك الفتاة المسكينة منذ مدة طويلة حين كانوا يعيشون في إحدى مدن الأناضول الوسطى...

ولو أنّ علي رضا بيك أخذها إلى اسطنبول لربّما كانت قد عولجت... ولكن مع الأسف فإن هذا المرض قد أصاب ابنته وهو في أسوأ أوضاعه المادية.

ولكنّ جمال الأخلاق الذي تتمتع به ابنته فكرت، كان يغطّي كلَّ عيوبها...

حتى تلك البقعة بالنسبة إلى علي رضا بيك لم تكن تعدُّ عيبًا... على العكس، فقد كان من الممكن أن تكون جميلة بطريقة مختلفة، برقّة قلبها وبراءتها،... ولكن مع الأسف فإن الجميع ـ وخاصة الشبان الذين يريدون الزواج ـ لم يمكنهم أن يروها بعيني والدها...

حاول علي رضا بيك أن يهتمّ بها أكثر كأخيها، ولكنها كانت بنتًا، لن تنطلق في الحياة كأخيها... لم تكن بحاجة إلى معلومات عمليّة، ولهذا السبب علّمها علي رضا بيك أشياء شكليّة وخيالية...

كانت الفتاة تقرأ كثيرًا من الكتب إلى درجة أن القراءة كانت تشكّل خطرًا كبيرًا على عينها المصابة، وأكثر قراءاتها كان الروايات... وكلما كان علي رضا بيك يراها تتحدث عن الفنانين المشهورين والمؤلَّفات الشهيرة، وتُبدي رأيها المتواضع بالحياة كان يبتسم ويشعر بالفخر بها.

كان قد أراد من ابنته أن تكون ذكية ومثقفة إلى درجةٍ تنسيها العيوب التي في وجهها كلها... ولكن حمدًا لله، لا يمكن لأحد

أن يقـول إنه لـم يوفّق في ذلك... كان قد ربّاها كربّة منزل جيّدة تشبه والدتها... كانت ابنته في ذلك اليوم لا ينقصها أيّ شيء... كانـت قادرة على أن تُسـعد أيّ رجل بكل مـا تحمله الكلمة من معنى، إلا أنّ...

وبدأت تستيقظ في مخيِّلة علي رضا بيك أفكار محزنة...

نعم، يمكن القول إن الفتاة لا يوجد فيها أي عيوب... ولكن كيف؟ وأين سيجدان لها الرجل الذي سيفهمها؟ وماذا عن فقرهم الذي كان سيزداد يومًا بعد يوم؟ ألـم يصعّب الوضع أضعافًا؟

كان علـي رضا بيك يرى كل يوم حول ابنته عددًا من الشـبان، وأغلـب هـؤلاء كانوا متفقين فـي الرأي، فهم إمّـا يخافون الزواج، وإما يتحدثّون بسخرية، وكانوا يقولون، وبكل صراحةٍ إنهم يعتبرون الزواج صفقة تجارية، يعني أنهم يبحثون عن فتاة لديها مال كثير...

نعـم، زوجتـه كانت محقّـة... يبدو أنّ فكرت قـد تلقّت تربية خاطئة... لِمَ تُوضع الروح الجميلة في قلب البَشِع؟ ألكي تلاحَظ بشكل واضح أنها غير محبوبة في كلّ مكان، وأنها مُهمَلة في كل شيء؟ هذا كان كلامًا فارغًا، وغير مفيد، كالكلام الطيّب في الفم الخبيث، وكالكلام المحقّ في فم شخص عاجز.

كلّمـا فكّـر علـي رضـا بيـك فـي هـذا الموضـوع، ازدادت الشـكوك في داخلـه، نعم، فِكرت تلقّت تربيـة خاطئة... وكلما أدركـت هـذه الفتاة مقدار البشـاعة، زادت طلباتها، وبالمحصّلة زاد ألمها... كم تمنّى لو ربّاها كفتاة عديمة الإحسـاس لا فكر

لها أو كرجل يعمل ويكافح في هذه الحياة...

في الحقيقة لا يمكن أن تكون ابنته اليوم هي فكرت التي لا مثيل لها، كان سيُحرم من السعادة التي يشعر بها اليوم وهو يفكر في أن هذه هي «ابنته». ولكن ما الضرر؟ إنها ستكون سعيدة؟!

تخيّل علي رضا بيك ليلى ونجلاء أمام عينيه بعد فكرت فهما لم تكونا ذكيتين كأختهما الكبيرة، ولكنهما كانتا جميلتين بكل معنى الكلمة. فليلى كانت في الثامنة عشرة ونجلاء قد دخلت عامها السادس عشر، وكان من الصعوبة بمكان في هذا الزمن إيجاد زوج راشد وشريف، ومع ذلك لم يكن مستحيلًا.

شباب هذا الجيل ربما لا يفهمون أي شيء عن جمال الروح الموجود في فكرت ولكن نجلاء وليلى كانتا تستطيعان تدبّر أمرهما بفضل جمالهما، وحتى ذلك اليوم كان كل الدأب أن يحافظ على هؤلاء الأولاد وعلى نقاوتهم، لكنهم في الوقت نفسه ضعفاء النفوس، شأنهم شأن شباب جيلهم وفتياته، حيال تلك المغريات الظاهرة والخفيّة في الجوار.

أمّا بالنسبة إلى عائشة فقد اعتبرها علي رضا بيك منذ زمن بعيد سلعة بين أيدي إخوتها، وسواء أكان شوكت أم لم يكن فهو يمتلك القدرة على حمايتها على الدوام. كل هذه الأمور كانت تجعل الأب العجوز في ذلك اليوم مستغرقًا في التفكير أثناء تشاغله بأعمال الحديقة.

9

أول أيام التقاعد والبطالة...

كان علي رضا بيك يعرف أنّ هذا اليوم سيأتي عاجلًا أو آجلًا، وأنه يومًا ما، سيتمّ رميه في سلّة المهملات، مع أنه كان مُجدًّا في عمله. ولكنه فكّر في هذا اليوم بطريقة مختلفة، فاعتقد أنه في الوقت الذي سيتقاعد سيكون قد أدّى جميع واجباته تجاه عائلته، وأمّن لهم كل احتياجاتهم الحياتية.

وكان كلما أغمض عينيه، تخيّل ما سيحدث في المستقبل، إذ سيكون قد وُلد له أحفاد، ونتيجة أنانية أولاده وجهلهم، سيقع عبء الاهتمام بهؤلاء الأحفاد على عاتقه هو وزوجته، وسيقولون له: أنت الذي قلتَ إنك انسحبت من الحياة، وليس لديك شيء تعمله سوى انتظار الموت في إحدى الزوايا، فهاك... تفضّل.

لن يعود لدى الجدّ وقت كافٍ ليحكّ رأسه، فتارة يأخذ الأولاد للعب في الحديقة، وتارة يروي لهم قصصًا جميلة وهم يجلسون حول المدفأة. وعند ذاك يكون من الضروريّ تعريفهم بتاريخ العائلة، وإعطاؤهم دروسًا في الفضيلة والأخلاق، وكيف كان آباؤهم وأمهاتهم من قبلهم.

وهكذا فإنّ وقته سيكون ممتلئًا بأعمال كثيرة، وعند ذاك لن يجد وقتًا لينام على فراش الموت، نتيجة الضوضاء والضجيج، وربما يموت من دون أن يدري. هل بإمكان أيّ إنسان أن يتخيل سعادة أكبر؟!

لقد أصبح هذا الحلم الآن حقيقة بكل معنى الكلمة.

كان عدم إيجاد وقت لقراءة الكتب أكبر هموم علي رضا بيك. فكان كلما وصل في القراءة إلى أجمل فقرة طرأ أمر جعله يقطع قراءته، وبخاصة في الصباح عندما كانت زوجته تقف فوق رأسه كملاك الموت، وتقول له: «هيّا يا علي رضا بيك، حان الوقت، ستتأخر على العبّارة.»

عندما كان علي رضا بيك يطوي الكتاب، كان يقول بينه وبين نفسه: «آه، لو أتقاعد!» وها قد جاء هذا اليوم. ولم تعد زوجته تأتي إليه كل صباح، وتقول له: «هيا يا علي رضا بيك اترك الكتاب...» ولكن انظروا إلى المشكلة، فلم تعد هناك متعة حتى في قراءة الكتب!

***

كانت وسوسة زوجته وعنادها أمرين يصعب التخلص منهما. لقد ظلّا متخاصمين مدة طويلة، ولكنه عندما رأى عدم مبالاتها عاد وصالحها من جديد، ولم يكن ليحزَّ في نفسه شيء أكثر من تصرُّف خيرية خانم.

قال لها يومًا:

- حرام عليك يا امرأة... أنت لا تهتمّين بي إلا من أجل المال الذي أكسبه من وظيفتي.

وعندما رآها زمّت شفتيها من دون أن تغضب، قال لها:

- لقد كنا كرفيقي سلاح في الحياة، فهل من العدل أن تطلقي

عليّ الرصاص من الخلف في الوقت الذي جرّدوني فيه من سلاحي؟

كانت هذه الكلمات قد خطرت في ذهنه منذ زمن بعيد. وكان يظنّ أنها حين تسمع هذه الكلمات ستضمّه، وهي تبكي، وستنتهي الخلافات الموجودة بينهما. ولكن هذه الكلمات المؤثرة في الحقيقة، لم تؤثر إلا في علي رضا بيك نفسه. أمّا خيرية خانم فهزّت كتفيها باستهزاء خلافًا لتوقّعاته، وقالت له بوجه يخلو من المشاعر:

ـ ماذا نفعل...؟ على كل إنسان أن يتحمّل نتائج أفعاله.

10

كانت مدّة شهر كافية لعلي رضا بيك ليكون حاله حالَ جميع المتقاعدين.

فعندما توقّف عن العمل، ظهر الترهل الخفيّ الذي كان مستورًا أثناء العمل فجأة كالعجلات التي لا يظهر قِدمها، وهي تعمل، إلى الوجود بكل عيوبها. تغيّر مظهره الخارجي وتغيّر شكل ثيابه، فقد ارتخى سرواله من عند الركبتين وقميصه من المرفقين، ولم يعد التنظيف يفيد لإزالة الغبار الذي تراكم وعشش بين ثنايا ثيابه، مع العلم أنه كان رجلًا يرتدي أجمل الثياب وأنظفها. وكان يستيقظ مع بزوغ الشمس صباحَ كلّ يوم.

لم يعد في تلك الساعات يتمدد كما كان يفعل في الماضي، بل على العكس تمامًا كان ينظر إلى الطرقات الطويلة متأملًا السماء التي ستظهر فيها الشمس، وكان يشعر بتعب عميق في جسده. لم يبق اللون القديم موجودًا لا في كتبه ولا في حديقتهِ وكان يفكّر كالأصمّ، وكالطيور التي تزقزق إيذانًا بقدوم الربيع. فلِمَ لم تُطلق أصواتها؟ ثمّ يقول:

- ما حصل لي سببه معروف، ولكن ماذا أصاب هذه الكتب والورود؟

وعلى الرغم من ذلك فقد كان يشغل نفسه بإزالة الأعشاب الضارّة التي تغطي الحديقة وبسَقْي الورود، ولكنه لم يكن يعلم ماذا يفعل عندما كان يرفع رأسه إلى السماء، ويرى أنّ الشمس

لا تـزال في مكانها. لقـد اعتاد الخروج في الصباح والمسـاء إلى بـاب الحديقـة فـي وقـت العبّـارة. كان يمشـي علـى طول سـور الحديقة، وأصابع يديه متشابكة خلف ظهره، وينظر إلى الموظفين الذين يذهبون ويعودون من وظائفهم، ويتأملهم بحزن شديد كطائر لقلق مكسور الجناح ينظر إلى أسراب اللقلق الطائرة في السماء.

كان علي رضا بيك عدوًّا للمقاهي والمقاصف منذ زمن بعيد. كان يقول بينه وبين نفسه عندما كان موظفًا:

ـ ما هذه الأماكن؟ إنها مخصصة للمساكين، لو كان الأمر بيدي لأغلقتها كلَّها.

أمّـا الآن فقـد أصبح يـدرك أنّ هذه الأماكن مـا هي إلا زوايا من أجل تسلية المتقاعدين المساكين، الذين خرجوا من وظائفهم وليـس لديهـم ما يعملونـه، والذين لا يجدون الراحـة في بيوتهم أيضًا.

بدايةً أَخذ يستريح في المقاهي التي على الطريق المؤدي إلى منطقة «تشامليجه» أو إلى أسواق «أوسكودار».

وفيما بعد اعتاد الجلوس في مقاهي الأسواق والأحياء. وكان يقـرأ الجرائـد منزويًـا وحيدًا لأن شـعورًا بالاشـمئزاز تجـاه روّاد المقاهـي كان مـا زال يعتريه. لم يكن يحـب الاختلاط بهم. كان يجلـس كمشـاهد فقـط، وأمّا مـاذا كان يـرى ويسـمع؟ فقد كان يرى أشـخاصًا كبارًا لهم مكانتهم، يسمعهم يحكون ما يجري في بيوتهم، ويثرثرون على زوجاتهم، ويشتكون من أولادهم، وأحيانًا

كانـوا يذكرون أصناف الطعام التـي يأكلونها، وكانوا يقولون إنهم في بعض الأحيان يبيتون جياعًا.

كان هنـاك روّاد يلعبـون بالنرد والورق، وفجـأة يتوقفون قليلًا لتبـادل الشـتائم أو الشـجار، ثم يعـودون إلى اللعب، وكأنّ شـيئًا لم يكن. حتى إنه في أحد الأيام رأى متقاعدًا كان يشـغل منصبًا مرموقًا فيما مضى يتعرض للضرب!

وأمّـا علـي رضـا بيك فـرأى أنّ مـا حصـل لهذا الرجـل أمر مخجـل، وأنّ عليـه أن لا يخرج من منزله بعـد الذي تعرّض له، ولكنه فوجئ به في اليوم التالي وهو يلعب بالنرد في المقهى ذاته وكأنّ شيئًا لم يكن!

في الأيام الأولى لجلوسه في المقهى تعرّف بشخصين لا حول لهما، كانا بدورهما يبحثان عن شـخص يتبـادلان معه همومهما، ومن ثَم ازداد الأحبة والأصدقاء، ولكنّ عزة نفسـه وكبرياءه كانتا لا تزالان تسـيطران عليه. وعلى الرغم من استماعه إلى الآخرين لـم يقـل كلمة واحدة عـن همومه. وأخيرًا فهـم أن هذه المقاهي هي الأماكن الوحيدة التي يتمّ اللجوء إليها لتناسـي الآلام الناتجة عن البطالة وعدم الشـعور بالراحة في المنزل، ولو لم توجد هذه الأماكن، لما بقي للمتقاعدين من عمل سوى الموت.

11

وأخيرًا أصبح لعلي رضا بيك في المقهى مجموعة أصدقاء متقاعدين عددهم ما بين ثمانية أشخاص وعشرة. تُرى ما الذي يستطيع فعله في واقعه الجديد؟

كان هؤلاء المسنّون جميعهم تقريبًا يعانون من أوضاعهم المعيشية، فقد أمضوا سنواتهم وهم يعملون باستمرار كالنمل، ولكن عاقبتهم مع الأسف لم تكن تشبه عاقبة النمل بقدر ما كانت تشبه عاقبة حشرة الزيز، لأنّ معاشاتهم التقاعدية لم تكن تساوي من الجمل إلا أذنه فلا تكفي لتلبية احتياجاتهم اليومية.

كان غالبية هؤلاء رجالًا أطهارًا وشرفاء. ولكن بعضهم كان يتحسّر ويقول: «لماذا لم نسرق عندما كانت الفرص متاحة لنا؟» وبعضهم الآخر كان يقول: «لم نستطع أن نسرق، ولكن ألم يكن باستطاعتنا تعبئة وقتنا بشكل أفضل، طالما أنّ نهايتنا ستكون بهذا الشكل؟ لقد بذلنا جهدنا وعملنا ليل نهار، فرموا خُثارتنا بعد أن عصرونا كالليمون وأخذوا العصارة!»

كان علي رضا بيك يتألم لهم من صميمه كما كان يتألم لنفسه. ولكن لم يكن يؤيدهم في الرأي حتى إنّ نقاشًا كان أحيانًا يدور بينهم من أجل ذلك. وهو في الحقيقة لم يكن ينتظر نتيجة من هذه النقاشات، ولكنه كان يُمضي وقته.

تعلّم علي رضا بيك بعض الأشياء المفيدة فيما يتعلق بأصول المشتريات الرخيصة من رفاقه الجدد، من أين يشتري

الفحم واللحم والخضر، وكيف يشتريها، ولكن لم يكن من الممكن تطبيق الأصول التي تعلّمها جميعها، فقد كان عليه أن يكون لَعوبًا مع البائعين، ويعاندهم تارة ويتحايل عليهم تارة أخرى، ولم تكن هذه التصرّفات تتلاءم مع طبيعة علي رضا بيك الرزينة. ذات يوم توجّه مع صديق له، كان قد شغل منصب رئيس بلدية لفترة طويلة، إلى السوق، وكانا يريدان شراء الخضر، وفيما هما يحاوران البائع شبّ شجار بينهم، فلم يكن من البائع إلا أن شدّ الكيس وأخذ الكوسا الموجودة بيد رئيس البلدية السابق وقال له: «اذهب إلى عملك يا عجوز... أنت لم تخرج كي تشتري بل لتتسلّى... إذا كنت لا تمتلك المال، فاذهب واقطف عشبًا من الحقل وكلْه!» ودفع المسكين من صدره ورماه أرضًا فوق سلال الخضر. نزل علي رضا بيك إلى سابع أرض من شدّة خجله، وأقلع عن الذهاب مرة أخرى مع شخص آخر إلى السوق.

***

لاحظ علي رضا بيك أنّ معظم رفاقه المتقاعدين كانوا يتذمّرون من أهاليهم في منازلهم، وهذا يعني أنه لم يكن وحيدًا بهذا الخصوص. كان الشجار يحرق منازل هؤلاء المتقاعدين الفقراء كالنار المستعرة التي تحرق الأخضر واليابس. وقد آمن علي رضا بيك أنّ هذا البؤس نابع من الأسباب والظروف الاقتصادية والقوة الملعونة ذاتها.

كان المسنّون المساكين ينطلقون من المنازل، كلّما انبلج الصباح كالهاربين من النار فيجلسون ويتشاجرون وينامون في المقاهي حتى منتصف الليل على الرغم من حاجتهم في مثل هذا الوقت إلى جوّ عائليّ دافئ أكثر من أي وقت مضى. لقد تحمّلوا أنواع عناء العائلة جميعها حتى ذلك الوقت وبلا تذمّر، لأنّهم كانوا يفكّرون في أيام الشيخوخة هذه على الدوام. ماذا تأمّلوا؟ وماذا حصل؟ يا ساتر!! وماذا لو لم تكن هذه المقاهي؟ ما الذي رآه علي رضا بيك وما الذي سمعه في هذه المقاهي؟ والأغرب من ذلك أنّ أغلب هؤلاء المسنين حتى ذلك الحين تعرّضوا لِما كانوا يتخوّفون منه كثيرًا. فمثلًا كان هناك مدير دائرة سابق يتخوف طول حياته من أن يستدين ولا يكون بإمكانه استرجاع راتبه الشهري من الصرّاف بأيّ شكل من الأشكال، فكان يجهّز نفسه لدخول السجن بسبب ديونه التي يستحيل عليه تسديدها للبقال والجزّار. وعندما بدأ أحد الحرفيّين بالصراخ أمام باب بيته ذات يوم مرّتين كاد يلفظ أنفاسه. ولكنه الآن لا يبالي، حتى إنه كان يستقبل خطورة دخول السجن بطريقة فلسفية ألا وهي الاتكال على الله فيقول: «ماذا أفعل؟ لا أريد أن أبقى مدينًا لأحد... لا أستطيع تسديد ديوني بالفلوس فلأدفعها بالدخول إلى السجن على الأقلّ. علمًا أنّ السجن لا يُعتبر بالنسبة إليّ عقوبة تستدعي الخوف!»

وهناك مدير ماليّ سابق أيضًا، كان يُشتهر بصعوبة إرضائه

بشـيء عندما كان شـابًّا. لم يكن يلبس الجراب الذي يخلعه من قدميـه إلا بعـد غَسـله. أمّـا الآن فالقمـل لا يفارقـه، لأن زوجته أصبحت مُقعدة من عامين، ولم يكن له أيّ قريب معه في منزله. لقـد بات عليه القيام بكل أعمال المنزل، بالإضافة إلى حمله همّ المريضة ليل نهار.

شـخص ثالث كان يتلقـى الضرب من زوجة ابنـه وزوج ابنته كلَّ مسـاء، فكان يحمل أغراضه الشـخصية ويذهـب إلى المقهى قائلًا: «لعنة الله عليّ إذا رجعت مرة ثانية إلى ذلك البيت!»

ولكـن عندما كان يشـعر بالنعـاس عند خـروج الزبائن، ويبدأ بـرد الليـل بإيلام قدميـه المصابتيـن بالروماتيزم كان يغيّـر قراره، ويرجـع إلى منزلـه حاملًا معـه أمتعته الشـخصية. ولكنهـم كانوا يضحكون منه بدل أن يشـفقوا عليه ويقولون: «هذا جزاء عمله!» كان هذا صحيحًا إلى درجة ما. هذا الرجل الذي كان يدرّس في المؤسسـات العسـكرية لسـنوات طويلة، الله أعلم كم جنى على طلاب مساكين!

مـن بيـن زبائن المقهى كان هناك والٍ سـابق اسـمه «سـرمد» بيـك. ولكنـه لم يكن يشـبه المتقاعديـن الآخرين. علـى العكس تمامًا، كانت ملابسـه جديدة ومرتّبة، تدلّ على أنـّه رجل ميسـور الحال.

كان «سـرمد» بيـك رجلًا اشـتهر فـي حياته المهنيّة باسـتقامته وشـرفه. وعلـى الرغـم مـن سـنواته السـبعين، كان يقـف منتصبًا

ببشرته الحمراء، وبقَصّة شعره الأبيض الغريبة، وبهندامه النظيف ويتكلم بصوت عالٍ.

أعطى علي رضا بيك أيضًا ـ كما الجميع ـ الرجل أهميّة في البداية، وسمع كلامه بكل احترام. ولكن فيما بعد سمع أشياء سيئة عن «سرمد» بيك. ولهذا بدأ يشمئزّ من هذا الرجل ذي الهندام المقدّر أكثر من هؤلاء المقمّلين وآكلي الضّرب. فقد قيل إنّ بنات هذا الرجل غير نظيفات، وفي الوقت الذي كان يتحدث في المقهى عن الأخلاق والفضيلة بصوت عالٍ، كما في السابق، كانت تحدث في منزله فضائح تقشعرّ لها الأبدان، وسبب ارتدائه الملابس النظيفة إلى هذا الحدّ لم يكن إلا من ذلك.

كان البعض يقول إنّ «سرمد» بيك لم يكن يعلم بأيّ شيء. لكن البعض الآخر كان يقول إنّ هذا الرجل لم يكن أحمقَ إلى درجة أنه لم يكن يشعر بهذه الفضائح التي تدور على ألسنة الصغير والكبير، أو لم يكن مخرّفًا إلى درجة أنه لم يستطع اكتشاف منبع المال الذي يصبّ في بيته كالمزراب. كان يعرف كل شيء كالخنزير. وعلى الرغم من أنّ علي رضا بيك كان يخشى التدخل كثيرًا في هذه الأقاويل، قال ذات يوم متخوّفًا:

ـ يبدو لي أنّ الاحتمال الثاني ضعيف... كيف يتحمّل إنسان مثل هذه الأشياء، وهو على علم بها؟!

ضحك الحاضرون وقالوا: «هل يرفس العبد نعمة ربه؟»

لا شك أنّ الرجل المسكين عانى قليلًا في بداية الأمر، ولكنه اعتاد ذلك فيما بعد شيئًا فشيئًا.

في المحصِّلة فإن أحداث هذا المقهى كانت تُنسي علي رضا بيك همومه، حتى ولو لفترة قصيرة.

12

أصبح الفقر بالنسبة إلى علي رضا بيك مدرسة جميلة. بدأ يرى كل شيء بلونه الطبيعي وبصورته الحقيقية. لم يعد أحد يكلّف نفسه عناء وصف هذا العجوز المعدَم بخلاف ما هو عليه حتى أولاده... كذلك كانت فكرت أيضًا تشعر بابتعاد وبرود غريب حياله. كان ثمّة أشياء لا يمكن فهمها في داخل هذه الفتاة، فهي لم تعد تقترب من أبيها. وكانت تُظهر بكل وضوح أنها لا تثق به كما كانت سابقًا. ما الذي كان علي رضا بيك ينتظره من هذه الفتاة الناعمة والرزينة في مثل هذه الأوقات الصعبة؟

أمّا ليلى ونجلاء فقد كانتا في الوضع نفسه تقريبًا. لم يكن ثمّة أيّ خلاف لهما مع والدهما في الظاهر، ولكنهما، ولسبب غير واضح، كانتا تتجنبان مواجهته وكأنهما حاقدتان عليه، فقد كانتا تديران رأسيهما إلى جهة أخرى بحركة معاندة، وكأنهما اتخذتا قرارًا مسبقًا كيلا تصدّقا الأشياء التي ستسمعانها عندما يبدأ كلامه.

عندما انطلق علي رضا بيك بهذه المغامرة كان واثقًا بنفوذه وتأثيره في أبنائه أكثر من أيّ شيء. كانت تلك موجة من غير الممكن أن يتمّ تخطّيها إلا إذا صدّقه الجميع داخل البيت وأطاعوه. مع أنهم كانوا يفترقون عند أول هزّة، وكانوا يتركونه وحيدًا أمام العواصف الكبرى.

عرف الرجل العجوز الهزيمة الأولى من خيرية خانم، فكان

يحقد على زوجته ويقول: «وكأن ما تفعله لا يكفي، فتُسمّم أولادها وتقوم بتحريضهم عليّ!» ولكنه علم فيما بعد أنه أخطأ في حق تلك الفقيرة من دون سبب. لندَعْ تشجيع أولادها جانبًا، فربما كان أولادها هم الذين يجعلونها «مُرّة» وعصبية. وثمّة شيء آخر كان يعزّز هذا الرأي، فمع أن خيرية خانم كانت تبتعد عن زوجها، إلا أنها لم تكن تهمل واجباتها كربّة منزل على الإطلاق.

أساسًا كانت خيريّة خانم امرأة تولي الاقتصاد أهميّة كبيرة منذ زمن بعيد. وها هي الآن قد أوصلت الجانب الاقتصادي إلى مستوى البخل والتقتير، فما الذي يمكن أن ينتظره هذا الزمن الرديء من زوجته؟

وأمّا بالنسبة إلى ولده شوكت، فلم يبق لوالده العجوز سواه مبعثًا للسعادة والترويح عن النفس. شوكت هذا كان بمثابة الجوهرة النادرة، وشيئًا فشيئًا بدأ هذا الشاب يرتفع في نظر والده إلى منزلة عالية جدًّا!

هو وحده كان يفهم الآن النار التي تكوي علي رضا بيك. وعلى الرغم من أنه يحمل عبء العائلة على كاهله، وأنه يتعب ويرهق نفسه في أكثر التفاصيل ألمًا، فإنه لم يكن ليقلّل أدبًا، بل كان يجلس عند قدمي والده، ويداعب لحيته ويواسيه، قائلًا:

- لا تخف يا أبي... فلن أخيّب أملك أبدًا... سترى كم ستتحسّن حالتنا، وكم سنرتاح في نهاية المطاف... قبل كل شيء يجب أن نعتني بأخواتي. وكل شيء سيكون سهلًا طالما نحن مع

بعضنا. وسأكون على استعداد لأن أبعث السعادة في نفسك، ونفس والدتي أيًّا تكن الظروف.

كان شوكت يفكّر في كل أخت من أخواته على حِدة، شخص واحد فقط كان يُهمله في هذا البيت، وهذا الشخص هو ذاته...

ذات يوم حاول علي رضا بيك أن يعرف ما يجول في خاطر ابنه، فقال له:

ـ لا تُخفِ عني شيئًا يا شوكت. لا شكّ أنك أنت أيضًا كنت تريد أن تحقق أمنية ما... ماذا كنت ستفعل لو لم تقع هذه المصيبة على رأسنا؟

فكّر شوكت مليًّا وقال:

ـ كنت أريد أن أصبح مهندس معمار ناجحًا يا أبي... كنت أريد أن أكبر وأجني مالًا وأكسب شهرة... ولكن ما باليد حيلة... لم يُكتب لنا نصيب...

ربما كان سيقول أكثر من ذلك، ولكنه رأى الألم في عيني والده، وغيّر حديثه ضاحكًا وقال:

ـ على كل حال لا تعتقد أنّ هذه الأمنية مهمة. إنني مسرور جدًّا في حياتي الحاليّة أيضًا... ثم إني شابّ وإذا تحسّنت أمورنا فربما أجد وقتًا لذلك أيضًا...

بدا علي رضا بيك وكأنه صدّق ابنه.

غيّرا الحديث، وبدأا يتحدّثان في أشياء أخرى.

بعض رفاق علي رضا بيك المتقاعدين والموجودين في

المقهى معه اكتشفوا في العبادة ترويحًا عن نفوسهم، أمّا عبادة علي رضا بيك فكانت التفكير في ولده، وعندما كان التشاؤم الذي يعشّش في داخله يتفاقم أحيانًا، ويصل إلى حدٍّ لا يُطاق، كان يفكر في شوكت فيشعر ببرودة تسكنه.

ذاتَ يوم اعترف بذلك لشوكت بدموع لم يستطع إخفاءها في عينيه، وقال:

ـ يا بنيّ، كنت أعتقد نفسي إنسانًا ذا فضل، وكنت أعتزّ بذلك كالأبله، وإذا بي أكون لا شيء تجاهك!

استغرب شوكت، وبدأ يضحك قائلًا:

ـ ماذا تقول يا أبي؟ هل يُعقَل أن يتمّ تصوّر إنسان مثلك في العالم؟ هذا تصرّف طفوليّ!

هزّ علي رضا بيك رأسه بعناد، وقال:

ـ أبقى لا شيء تجاهك يا بنيّ. وإذا سألتني عن السبب فأقول: لأنّي لم أسمع ولم أر أيّ شيء وأنا على قيد الحياة... ولكنك أنتَ ولد مفعم بالمشاعر... تفهم كلّ شيء وتطلبه... وعلى الرغم من ذلك، تراك تحرم نفسك مما تريده باختيارك. هذا هو الفرق بيننا يا بنيّ، ولهذا أنت أرفع منّي شأنًا بكثير...

13

بدأت المناوشـات ونشـب العراك بين الأولاد في البيت. كان ذلك يحدث بطريقة خفيّة، ولم يسـتطع علي رضا بيك اكتشـاف الأسـباب الحقيقيّـة لتلـك المناوشـات. ففـي يـوم تحقّـر فكرت أخواتها، وفي آخر نسمع ليلى تبكي في غرفتها، ويمرّ يوم آخر لا تنـزل فيـه نجلاء لتناول الطعام. أمّا خيريّة خانم فقد أصبح مجرّد الاقتراب منها مشكلة، ولم يجرؤ علي رضا بيك على توجيه أيّ سؤال لها، لأنه كان يعرف أنه سيتلقى جوابًا مزعجًا.

وتزايدت الضجة مع مرور الوقت، ولم يعد أحد يخشى أحدًا. عندذاك رأى الرجل العجوز أنّ بناته انقسـمن فريقين: فكرت في جهة، وليلى ونجلاء في جهة أخرى.

كان ذلـك دليلًا واضحًا يُظهر عـدم الاكتراث بنفوذ الأب في البيت، وعدم احترام ربّ الأسرة في الوقت نفسه.

كانـت ليلى ونجـلاء لا يعجبهما نمط حياة الأسـرة، وتطالبان بالتجديـد والترفيـه وأشـياء أخـرى. كانتـا طائشـتين قياسًـا علـى فكرت. ولم يكن علي رضا بيك قد اهتمّ بتأهيلهما الفكري، ولا بتربيتهما. كان من المستحيل السماح للفتاتين الجميلتين بالتصرف وفق ما تمليه عليهما رغباتهما، وعلى أي حال فهما لن تبقيا عنده ضيفتين إلّا لأربع سنوات أو خمس.

كان علـي رضا بيك يقول: «يكفينا تربية ليلى ونجلاء كفتاتين شـريفتين.» وكانـت كل التدابيـر التـي اتخذهـا عبـارة عـن تربية

تقليدية ومنغلقة، فلم يكن يسمح بخروج ابنتيه إلى الشارع كثيرًا، ولم يسمح لهما بمصادقة فتيات من أسر غير معروفة أو مرموقة، وكان يحـذّر زوجتـه ويقول لها على الدوام: «إن الجمال في هذا العمـر هو أكبـر خطر على الفتيـات، افتحي عينيك جيّـدًا.» لكنه كان يدلّل بناته في البيت كثيرًا على العموم، ويدلّل نجلاء وليلى خصوصًـا، ويُظهر حبه لهن، لم يكـن يرفض لهنّ طلبًا... إلى أن تحوّلت هذه المشكلة إلى ردة فعل سلبية، وذلك ما سبّب أغلب المشادّات التي كانت تحدث بينه وبين زوجته.

كانـت خيرية خانم تشـتكي مـن نفقات ليلى ونجـلاء الزائدة، وكان علـي رضـا بيك يقول لها: «أنتِ لا تسـتوعبين هذا الشـيء يا خانـم. نحـن نسـجنهما فـي البيـت، لذلـك علينـا تلبيـة جميع مطالبهمـا مـن أكل ولبس، وإلا فسـتكرهان البيت وحيـاة البيت. ليتنـا نسـتطيع تقديـم أكثر من ذلـك لهما، وأن نقـدّم لهما كلّ ما بوسـعنا تقديمه لإدخال السرور إلى نفسيهما وجعلهما مسرورتين في البيت أكثر مما هما.»

حدثـت أول مشـادّة بين خيريـة خانم وابنتها الوسـطى. كانت المظلومـة قـد قاومـت كثيرًا دمـوع ليلـى ونجلاء وبكاءهمـا، أمّا فكرت فكانت رزينة، وتسـاعد أمها في السـر بعد انتهاء الضجة، فقد ظهرت علامات التعب والإرهاق على المرأة العجوز.

هـل مـن الممكـن تحمُّـل بـكاء فتاتين شـابتين طـول الليل والنهـار؟ بـدأت خيريـة خانـم بالاقتطـاع مـن مصاريـف البيت

الضرورية لشراء فستاني سهرة لليلى ونجلاء، لكنها بدأت تخطئ في الحسابات أخيرًا. عند ذاك انتقدت فكرت هذا الضعف لدى أمها، وقالت لها: «لا يحق لك يا أمي جرّ البيت إلى كارثة، وأن تتغاضي عن احتياجاتنا الضرورية لمجرد إرضائهما!»

اضطرت خيرية خانم إلى الدفاع عن ليلى ونجلاء وعن نفسها في الوقت نفسه، وقالت: «لهما الحق باللبس اللائق مثل جميع الفتيات، وبالتزيّن.»

كانت نظرة فكرت إلى أخواتها الصغيرات نظرة أم لأولادها حتى تلك اللحظة، وكان هذا الشعور ناتجًا من التلقين المتعمَّد الذي لقَّنها إياه والدها. لكن عندما دافعت والدتها عن ليلى ونجلاء بهذه الطريقة، لم تستطع فكرت السكوت، فقالت مغضبة:

- حسنًا، وأنا؟ هل أنا بنت كلب؟ دعيني لا أضع نفسي في الحسبان... أهو حرام على عائشة أيضًا عندما تكبر؟

كان العراك الذي استمرّ حتى تلك اللحظة من خلال ملامح الوجه بالعبوس والإغماء بطريقة سرية والدموع الصامتة، قد انفضح وظهر على الساحة علنًا. لقد انقسمت العائلة إلى حزبين، وبدأت المشادّات، فكانت ليلى ونجلاء وخيرية خانم في جهة، وفكرت وعائشة في جهة أخرى.

لكنّ القوة لم تكن متساوية لدى الفريقين، لأن فكرت كانت وحدها، ذاك أن عائشة كانت صغيرة. فكّرت الفتاة الصبية في شدّ شوكت وعلي رضا بيك إلى طرفها، ولكنّ شوكت قال بعد

أن سمع أخته مطوّلًا:

- يا فكرت، ليس من الصحيح أن أتدخّل في هذه المشاكل لأنهن قد يعتقدن أني أفرض رأيي عليهن كوني أقدّم بعض الخدمات البسيطة للبيت. لكني إذا ما رأيتُ خطورة قد تهدد مستقبل العائلة، فلن أبقى مكتوف اليدين.

وأمّا بالنسبة إلى علي رضا بيك فقد كان يرى جيّدًا أنه قد بدأ يأخذ موقع «فزّاعة البستان» في بيته، وأنّ التدخل في هذه المعركة، لن يعطيَ نتيجة سوى تخريب العلاقة مع الأولاد لأمر تافه. كانوا يحترمونه إلى درجة معيّنة كأب حتى تلك اللحظة، لكنه إذا ما أراد التدخل فلن تعود هناك ضرورة لاحترامه، وستسقط «الفزاعة» نهائيًّا، وتُداس تحت الأرجل. لذلك كان يغلق الباب على نفسه في غرفته أو يهرب إلى الشارع من باب المطبخ عندما يسمع ارتفاع حدّة الأصوات وتعاليها في البيت.

14

كان أولاد الأب العجوز يظنّون أنه لا يشعر بأيّ شيء يدور في البيت، لكنه كان يرى كلّ شيء ويفهم أولاده بشكل أفضل من الماضي. كانت هذه الأزمة قد أظهرت الجوانب المتفسخة لديهم كما يُظهر المرض المريع العلل الموجودة في الجسم. كم كانت فكرت وبناته الأخريات مختلفات عما كان يعرفهن! كانت ليلى ونجلاء تعبّران عن مطالبهما بصوت عالٍ، وتسألان: بأيّ حقّ يتم سَجنهما في البيت؟ لماذا كانتا تتعذبان في هذا الجحيم، بينما بنات الناس يمرحن في أي مكان، ومع من يُردن؟

أصبح اسم البيت «الجحيم». أليستا صبيّتين؟ ألا ترغبان في الخروج بين الناس وزيارة الأماكن المرموقة والرقص؟ كانتا تعتبران أنّ شبابهما يضيع سدًى. ماذا ستكون نهايتهما إذا استمرّ الوضع هكذا؟ هل جهّز والدهما شيئًا ما من أجلهما؟ كان البيت يغرق يومًا بعد يوم مثل الباخرة المثقوبة. لماذا لا يعترفون بحق كل شخص في تدبّر أمر نفسه في أوقات كهذه؟ لقد حان الوقت الذي يجب فيه رفع الضغوط التي تتعرضان لها، وربما فات الأوان على ذلك؟ لو أنهما تُركتا على راحتهما، فلربّما وجدتا زوجين خيّرين، وأنقذتا نفسيهما. ثم هل هناك مَن يأتي ويقرع الباب في هذا الزمن، ويسأل:«هل لديكم فتيات للزواج؟»

كان الفصل ربيعًا. وكانت مجموعات من الشباب والفتيات تمرّ أمام بيت «علي رضا بيك»، وكان هناك شباب وفتيات

يقيمون ولائم ريفية ويرقصون تحت الأشجار الموجودة قبالة البيت. كانت الفتاتان تُسْعَران عندما تسمعان أصوات موسيقى الأسطوانات، وكان كل من في البيت يتشاجر مع الآخر. كانت فكرت قد بدأت هجومًا عنيفًا لم يُتوقع منها، نظرًا لجسمها النحيل وطبيعتها الهادئة. كانت المشكلة شرف الأسرة، لذلك لا يمكن للرقص أو الطبقة الأرستقراطية أو أشياء أخرى مماثلة، دخول بيت علي رضا بيك، فوالدها وأخوها لن يوافقا على هذا الشيء أبدًا.

وعندما يكون الحال هكذا، فإنّ خيريّة خانم تعجز عن الدفاع عن ليلى ونجلاء. لكنها بالمقابل كانت تهاجم أولادها وتقول: «أنا لست راضية عن انفتاح ابنتيّ لكن ماذا سنفعل؟ والدهما هو السبب، فهو لم يعرف إلا التمسك بالصح، ونحن لا يوجد شيء لدينا لا خلفنا ولا أمامنا، وقد بدأت الفتاتان تخافان عدم إيجاد زوجين لهما، والحق معهما!»

طبعًا كان علي رضا بيك مسرورًا لنضال ابنته الكبيرة، لكنه كان يعرف أيضًا، أنّ فكرت لم تبذل جهودًا فقط من أجل شرف الأسرة، وهو يعلم أيضًا أنّ غضب ابنته هذه سببه عدم تحمّلها جمال أختيها وغيرتها منهما، وأنّ الأمر لم يكن حديثًا بل كان منذ القدم. كانت فكرت قد تغلّبت على أختيها برزانتها وثقافتها وهدوئها، وكانت تتصرف معهما تصرّف الأم لإحكام سيطرتها عليهما. لكنهما الآن كبرتا. وكان رصيد الرزانة والثقافة والهدوء

قد انخفض في البيت نتيجة الفقر والحاجة التي تزداد يومًا بعد يوم. لم تعد الأسرة تمتلك في ذلك الوقت أيّ عملة رائجة عدا الجمال. وإذا انطلقت ليلى ونجلاء وتحررتا، فإن قيمة الأخت الكبيرة المظلومة التي تفتقر إلى الجمال ستصبح في الحضيض. وصارت فكرة علي رضا بيك تقول: «لقد ربَّيت فكرت بشكل خاطئ، لقد تغيّرت.»

كانت الجهود التي تُبْذَل لتربية الأولاد فارغة مثل كل شيء، بحيث يظهر كل شيء كامن في تركيبة دمائهم وولادتهم عندما يحين وقته، ولا شيء يمكن تغييره.

كان الأب العجوز يجلس أمام ليلى ونجلاء خلال ساعات التأمل والهدوء ـ على الرغم من قناعته المذكورة ـ ويتحدث عن كل الأشياء التي تحزّ في نفسه. وكم تمنى لو استطاع شرح ما في نفسه لبناته ولو قليلًا. لكنّه لم يكن قادرًا على جعلهن يسمعن صوته مهما صرخ على الرغم من أنّ بناته كنّ على مرمى لمسة يده. كان عالَمًا غريبًا عنه أكثر من أبعد النجوم. كان علي رضا بيك يرى بناته مثل خرفان الأضاحي، لذلك كان يبكي دمًا.

15

«الجحيم!» بدأ ذكر هذه الكلمة التي استخدمَتْها ليلى ونجلاء لأول مرة في البيت. كان أفراد الأسرة كلهم يسمّون البيت بالجحيم، بمن فيهم عائشة الصغيرة. كان هناك وقف «إطلاق نار» مدّة نصف ساعة كلّ يوم في هذا الجحيم، أي وقت تناول العشاء، فقد كانت كل المعارك والدموع تتوقف، ويخيّم على غرفة الطعام جوٌّ من المحبة والهدوء وذكريات أيام زمان. كان شوكت هو سبب هذه المعجزة. والغريب أنّ أفراد الأسرة جميعهم استمرّوا بحبهم له. ربما كان ذلك نابعًا من عدم مشاركته في المعارك، أو لأنهم كانوا يتألمون له لأنه يعمل من الصباح حتى المساء لأجلهم.

كانت الوجوه كلها تتغير عندما يجلس إلى طاولة الطعام، وكانوا يتشاركون الحديث طوال فترة تناول الطعام. لكنّ تغيّرًا طرأ على شوكت منذ فترة معينة، كأنه فقد حيويته وروحه المرحة. لم يعد يتكلم ويضحك خلال تناول الأكل، وكان يضع يده على خده ويغرق في التفكير في بعض الأحيان.

كان علي رضا بيك يظنّ أن اصفرار لون ابنه، والهالات السوداء تحت عينيه، سببها سهره في الليل وضوء المصباح الساطع. لكن نمط حديث الولد كان قد تغيّر أيضًا. كان يتوقف وكأنه تعب فجأة عندما يتحدث بصوته الحميميّ عن أشياء تثير التفاؤل لدى الإنسان، وكان يصمت من دون سبب. أتراه كان

يتعب كثيرًا؟ أراد علي رضا بيك عدة مرات أن يصارح زوجته، ويتحدث معها عن خوفه، لكنه لم يتشجع، فقد أصبحت خيرية خانم امرأة لا يمكن الاقتراب منها، لأنّها قد تعاند زوجها إذا ما شعرت بقلقه، وتقول له أشياء بعكس تفكيره، وقد تجعل قلقه يتفاقم... كان في الماضي يصارح خيرية خانم.

بينما كان علي رضا بيك يسهو في ليلة من ليالي الشتاء وهو جالسٌ أمام المنقل وبيده كتاب، فتحت خيرية خانم الباب، وسألته:

- ألم تنم بعد؟ ومن ثَمَّ دخلت الغرفة، وقسمات وجهها يعلوها الرياء:

- الغرفة باردة جدًّا. ألم تبرد؟

أثارت نار المنقل ومن ثمّ سدّت ثقبًا في النافذة تدخل منه الريح بورقة، فرأت التمزقات الموجودة في جلّابية علي رضا بيك. وقالت:

- اخلعها ودعني أرتقها.

لكنها عندما رأته قد خلع الجلّابية، وبقي بالقميص الداخلي فقط، خافت أن يبرد، فسحبت البطّانية الموجودة في جانب الغرفة، وألقتها على كتفيه.

لم يفسّر علي رضا بيك تلك المجاملات بعلامة خير. دوران زوجته تلك الليلة حوله بطريقة خبيثة، وإظهارها له وجهها البشوش إلى درجة المداهنة، على الرغم من المشاكل الموجودة

بينهما لم يكونا عن عبث. كان يتذكر الخادمات اللواتي اشتغلن عندهم عندما كانت أحوالهم ميسورة. كانت خيرية خانم توبّخ الخادمات وتحقرهن قصدًا من دون أي سبب، لكنها غيّرت معاملتها فجأة مع إحدى الخادمات في ليلة من الليالي، وبدأت تعاملها بلطف ورقة واحترام ومجاملة، فتلقّت الخادمة معاملة لطيفة إلى درجة أحسّت كأنها ضيفة مرموقة ومهمة خلال تلك الليلة. وكان الحال هكذا فعلًا. لكنها سلّمتها حقيبتها في الصباح الباكر، وكأنها اتخذت قرارًا بطردها خلال تلك الليلة، ثمّ وضعتها خارج الباب!

أدرك علي رضا بيك أنه سيُطلب منه تقديم تضحية كبيرة خلال تلك الليلة.

قالت المرأة العجوز بعد أن انهمكت بالخياطة لمدة دقيقتين:

- لديّ شيء مهم جدًّا. يجب أن أتحدّث معك يا علي رضا بيك. طار عقلي من رأسي. أتيتُ الآن من غرفة شوكت، تحدّثنا مطوّلًا.

كان الرجل العجوز ينتظر النتيجة بدهشة كالمريض الذي سيُمدَّد على طاولة العمليات.

قالت له بعد مقدمة طويلة، وكأنها كانت تريد تطويل عذابه:

- إنّ ابننا يحب امرأة، ويريد الزواج بها.

كان شوكت شابًّا يافعًا جدًّا... وكان في عمر يقتنع فيه الشباب أنه لا يوجد أي شيء مهمّ وجدّي في العالم أكثر من الحب.

لم يصدّ علي رضا بيك زوجته بأيّ طريقة لأنه كان يعرف جيّدًا تفكير الشباب. وكان يرى أن الحب مشكلة يشتريها بعض الناس من ذوي الأحوال الماديّة الميسورة عن وعي ومعرفة ورغبة، ولكن كيف يمكن لإنسان مثل شوكت عاقل ورزين وغارق في العمل فعْلَ شيء كهذا؟

طأطأ علي رضا بيك رأسه بعد أن فكّر مطوّلًا، ثم قال:

- ماذا سنفعل؟ طالما أنّ الوضع هكذا، فليتزوج. هذا من حقه. لا يمكن طلب التضحية من أحد بشكل قسريّ.

أيّدته خيرية خانم وقالت:

- هذا صحيح. لكن هناك شيء آخر يقلقني كثيرًا لا أعرف ماذا ستقول بخصوصه.

- هل هناك شيء آخر؟ لماذا تترددين؟ قولي لي.

- أنت رجل كبير، أخشى أن يحدث لك شيء ما.

بدأ علي رضا بيك يرتجف، وكانت زوجته تخشى انفعاله الفجائي، لكنها كانت كأنها تتلذّذ بإزعاجه مستخدِمةً كلّ الوسائل لذلك منذ فترة معيّنة. توقّع أنه سيسمع شيئًا مؤلمًا ومخيفًا لا يمكن تصوُّره، فحاول إخفاء قلقه، وقال:

- لا ترددي، احكي، أنا تعوّدت كل شيء.

كانت المرأة قد أنهت الخياطة وجلست حول المنقل أمام زوجها، وبدأت تشكو وهي تحرّك الرماد الموجود في المنقل، وقالت:

- أقام شوكت علاقة مع إحدى النساء، وهي تعمل موظفة على الآلة الكاتبة في المصرف. هي امرأة متزوجة. كانا يلتقيان سرًّا هنا وهناك. لكنّ الأمر انفضح أخيرًا، فطردها زوجها من البيت ورماها في الشارع. والآن لم تعد تستطيع المجيء إلى المصرف لخجلها مما حدث؛ وتقول إنها ستنتحر إذا رفض شوكت الزواج بها.

لم يكن رد فعل علي رضا بيك كما كانت تتوقع زوجته، على العكس، كان الهدوء العميق يخيّم عليه ويلوح في نظراته.

ابتسم ابتسامة مُرّة، وقال:

- هل يريد شوكت الزواج من هذه المرأة؟

- طبعًا إذا أنتَ وافقت... في هذه الحال تكون قد أنقذتَ روحين.

- أصبح شوكت رجلًا شابًا... يمكنه التصرف كما يريد... لكن لا يمكنني مباركة زواج كهذا.

- ماذا تقول يا علي رضا بيك؟

- أقول كلام رجال يا خانم. إذا فعل ابني هذا الشيء فأنا أعتبره ميتًا. وعندذاك سأقول: كان لديّ ابن وأخذه الله مني، وسأكبس على الجرح ملحًا. مع الأسف لا يوجد شيء يمكن فعله.

كانت خيرية خانم تعرف زوجها جيّدًا، وتعرف أنه ليس بمقدورها التأثير فيه بهذا الصدد، مهما قالت وحكت. بدأت

تبكي بصمت وهي جالسة من دون أن تحدّثه بأية كلمة. قال علي رضا بيك بالهدوء نفسه:

- إنّ دموعك لن تجدي نفعًا يا امرأة. سأعيد لك الكلام مرة أخرى. أنا لن أسمح بدخول امرأة كهذه إلى بيتي، وإذا خرج شوكت عن طاعتي، وقال لي: «أنا الذي أُنفق على هذا البيت، ولا يحقّ لك قول أيّ شيء» فعندئذٍ سيتغير الوضع. وقتذاك سأترك البيت وأذهب بعيدًا. ولن نلتقي مرة أخرى أبدًا. لا تظني أني لا أتألم لك. لكن للأسف لا أستطيع التصرف بطريقة أخرى.

خرجت خيرية خانم من الغرفة، وهي تبكي. لكن علي رضا بيك لم ينم في فراشه، لأنه كان يعلم جيدًا أنه لن يستطيع النوم تلك الليلة. ألقى عليه البطّانية، وراح يفكر ويحرّك المنقل الفارغ حتى الصباح.

16

كان البيت قد انقسم حزبين مرة أخرى. كانت فكرت تعارض هـذا الـزواج بشـدّة. أولًا لأن المـرأة التي سـتدخل بيـت العائلة بصفتها زوجة أخيها مشكوك في أمرها، وقد عاشت عدة مغامرات في حياتها. وثانيًا لأن الفقر والضيق سيزدادان في البيت.

أمّا بالنسـبة إلى ليلى ونجلاء، فقد كانتا تؤيّدان زواج شـوكت بجنون، لأن التجديد والترفيه سيدخلان هذا البيت مع هذه المرأة كائنًا من كانت حسب رأيهما. ومن المؤكّد أنّ شوكت الذي كان على الطراز القديم مثل والده سيتغير من خلال تشجيع زوجته له.

بـدأت معركـة عنيفة بيـن الحزبين. كان علي رضـا بيك صلبًا بهذا الصدد مثل حجر الغرانيت. وكذلك فكرت، صديقة السلاح بالنسبة إلى والدها، باتت قوية إلى درجة لا يمكن تصوُّرُها.

لكـن خيرية خانـم لم تقطع الأمل في هَـزْم زوجها، وكانت تحـاول اسـتنزافه رويـدًا رويدًا، مـن خلال كفاح ماكـر مع أنها كانت تشـنّ عليـه هجومًا صريحًا. كانوا سـيتغلّبون على معاندة هـذا العجوز، طالما أنّ النقود والقوة بأيديهم. لكنّ عثرةً كانت تؤخـر الأمر، فقد كان شـوكت يتصرف برخاوة مـع والده. ليته كان إنسـانًا يمتلـك القـوة للوقـوف فـي وجـه والـده! لكن مع الأسـف، هذا الرجل الطويل العريض لا يجيد أيّ شـيء سوى البـكاء في السـر واصفرار لونـه يومًا بعد يوم. وفـي الظاهر لم تختلـف الأمـور بيـن الأب وابنـه. كان شـوكت يُظهـر احترامه

لوالده أكثر من أيّ وقت مضى، ويشرح له من خلال كلامه وتصرّفاته أنه لن يسبّب له الحزن مهما حدث. كانت خيرية خانم تنصحه، وتقول لابنها:

- يا شوكت، أنا لا أريد منك عدم إطاعة والدك، لكن اعبس قليلًا في وجهه على الأقلّ!

لكنّ الرجل الشاب لم يوافق والدته على ذلك أبدًا وقال لها:

- لا تعرفين كم أفهم هذا الرجل وأحبه يا أمي! لا تزعلي مني... أنا أحبك كثيرًا أيضًا. لكنّ حبي له شيء مختلف جدًّا، إنه كبير إلى درجة لا يمكنني وصفه.

حاولت خيرية خانم اصطياد زوجها من خلال حبه الجنوني لشوكت وحاولت جعله مرِنًا. وشرحت له الحال مطوّلًا و«وضعته بالصورة» مطوّلًا، وأكّدت له أنّ ابنهما سينتحر وسيموت في حال عدم تحقّق هذا الزواج. كان الأب العجوز الذي ارتخت أعصابه، يتخيّل ابنه نائمًا على فراش الموت، وهو يُغلق عينيه بيديه ويبكي مطوّلًا، لكن، بالنتيجة، كان يقول إنّ موته خير ألف مرة من هذا الزواج.

في إحدى الليالي جرت حادثة مخيفة بين الرجل وزوجته. كان اليأس يخيّم على شوكت. بدأت خيريّة خانم تتشنج وتتلوى وقد أصابتها أزمة عصبية قويّة وراحت تولول وتقول لزوجها: «لن أسمح لك بقتل الولد عينك عينك.»

قال علي رضا بيك وهو يبكي:

- حسنًا، لا تحزني... دعي شوكت يفعل ما يشاء... لا تفكّروا بي.. أنا سأخرج من بينكم... ولن تسمعوا حتى اسمي مرة أخرى.

أمسكتْه المرأة من (ياقته) بقوّة أكثر وبدأت تصرخ وتقول:

- بأيّ وجه تقول لي هذا الكلام؟ هل تظنّ أنّ ترك أسرة كبيرة وعدّة أطفال لامرأة عاجزة عمل شريف أكثر من السرقة؟

فهمت خيرية خانم أنّ العنف المذكور لن يجدي نفعًا بعد هذه الحادثة، وإذا تعرّض زوجها لانفعال أقوى فقد يموت، ورأت استحالة تغيير أفكار الرجل العجوز، عندذاك غيّرت سياستها.

كان على خيرية خانم إثبات أنّ قيام ابنها برمي تلك المرأة في الشارع وتخلّيه عنها هو أكبر قلّة شرف، طالما أنّ زوجها يعتبر هذا الزواج قلّة شرف. لقد هاجمته من هذه الجبهة.

- إنّ ابنك انتهك شرف أسرة، وكان سببًا في رمي امرأة في الشارع. يجب عليك القيام ببعض المقارنات. إنّ هذا الولد ليس لديه خبرة بالحياة مثله مثل فكرت وليلى ونجلاء. صدِّقني إن الله سيعاقبنا بأولادنا. وإنّ تنظيف شرف هذه المرأة هو دَيْنٌ برقبة ابنك.

تظاهر علي رضا بيك لفترة أنه لا يصغي إلى المنطق. لكن حدثت بعض الانهيارات تحت الصخرة التي بدا أنها لا يمكن أن تتزعزع.

نادى علي رضا بيك زوجته في يومٍ من الأيام من دون أيّ

سبب، وقال لها بهدوء وكأنه مظلوم:

ـ يا امرأة، أنا فكّرت مطوّلًا، واقتنعت أنه ليس من الصحيح أن يرمـي ابننا تلك المرأة في الشـارع. قولي لابني شـوكت إنني مستعدّ لقَبول أيّ امرأة قَبِل بها، ومستعدّ لاحتضانها مثل ابنتي.

17

في ليلة العرس... كان البيت ساطعًا بالأنوار، وقد فُتحت أبوابه ونوافذه... كانت الفرقة تعزف موسيقى كلاسيكية، وقد علت الأصوات والضجة والصراخ السعيد عند توقّف الموسيقى.

قدمت مجموعات من البشر كانت موجودة في الشارع إلى مصدر العزف والضوء من بعيد... مجموعات من النساء والأطفال والرجال... وبدا قدومهم كما لو أنّ هناك حياة خفيّة في عروقهم تشبه تفاعل فراشات الليل المتجمّعة حول ضوء قويّ تشدّهم إلى ذلك البيت.

كان بعض الناس يشاهد السعادة التي تشعّ من بيت العرس من الشارع، وآخرون تشجعوا لمّا رأوا الأبواب والنوافذ المفتوحة على مصاريعها، وبدأوا يدخلون الحديقة رويدًا رويدًا، وراحوا يجلسون حول أحواض الورود التي زرعها علي رضا بيك باهتمام فائق.

كان الأطفال يرقصون ويترنحون على أنغام الموسيقى الصاخبة، حتى إن بعض الكبار كانوا يشاركونهم في الرقص.

هرب علي رضا بيك من باب المطبخ الخلفي، وتوجّه إلى تلة تبعد عن البيت 400ـ500 متر، وجلس على طرف صخرة كبيرة وأسند رأسه إلى راحتي يديه. كان وضعه يشبه وضع شخص مقهور يتفرج على احتراق بيته عن بُعد، وهو لا حول له ولا قوة. لم يبق لديه أمل حتى بنسبة واحد في المئة. كان بيته

قد قاوم العاصفة التي تزداد قوة يومًا بعد يوم ببطولة، من خلال نوافذه المظلمة وأبوابه المغلقة مدة طويلة.

إن هذا العرس يغلق الأبواب وراءهم في لحظة مثل هجوم رياح قويّة عاتية، وفجأة صارت كل الأشياء التي كان يخافها الأب العجوز تستولي على البيت! نعم كان الأمل قد انتهى بالنسبة إليه لأنه فقد أقوى سلاح يملكه بعد حادثة شوكت، وبقي وحيدًا في العالم. كان علي رضا بيك يعيش منذ عدة أسابيع، كأنه يضع حملًا ثقيلًا على كاهله، لكنه بدأ يفكر بذهن صافٍ، بعد أن انتهى كل شيء في تلك الليلة، وكان يجد وقتًا لتذكّر الأشياء التي رآها.

عندما بدأ الحديث عن العرس، كانت بناته جميعهن بمن فيهن فكرت الرزينة قد انهالوا عليه بطلبات شراء الملابس. ولم يكن بإمكانه انتظار المساعدة من زوجته، كذلك لم يكن يتأمل خيرًا من شوكت لأن النار كانت تشتعل في رأس ذاك الولد المظلوم.

وَلْوَل علي رضا بيك واحتار في بعض الأحيان وحاول أن يشرح لأسرته أنّ هذا العرس ليس مدعاة فرح أو افتخار كما يفكرون، لأنه كان يرمم فاجعة كبرى. وكان الأَوْلَى بهم تمرير هذا العيب بهدوء وصمت بدلًا من إعلانه للعالم بالطبل والزمر. ثم كيف كانوا سيجدون المال لشراء الملابس وإقامة حفل العرس؟ لم يبقَ أيّ مال معهم، لا وراءهم ولا أمامهم. كانوا سيفقدون السيطرة على الأمور في حال استدانوا نقودًا، لأنهم سيبقون

جياعًا بعد بضعة أشهر وسيصبحون مهزلة أمام الناس.

احتار الرجل ولم يعد يعرف ماذا سيفعل، كان قد استدعى عائشة الصغيرة التي لم تتجاوز الحادية عشرة من عمرها بعد، وأجلسها أمامه، وبدأ يقوم بحساب النفقات لعدة ساعات، وأطلعها على دفتر ديون البقال والسندات وعدة أوراق أخرى. لم يعد الاحترام موجودًا عند الفتيات، وأصبحت كل واحدة منهن نسخة مصغّرة عن خيرية خانم. وعندما يغضبن كن يصرخن في وجهه بطريقة تشبه تصرّفات خيرية خانم تمامًا ويقلن: «ماذا أفادتْك استقامتُك؟ لم تفكّر بنا. حوّلْتَنا إلى أسوأ من أولاد الشحّاذين. ألا تخجل من ظهورنا بعرس أخينا مثل الخادمات بينما يلبي الناس جميع مطالب أولادهم؟»

كان علي رضا بيك رجلًا فيلسوفًا. وكان يضع بالحسبان حدوث أيّ شيء للإنسان. لكنه لم يفكّر في يوم من الأيام أنّ أولاده سيوبّخونه ويجرحونه وكأنه ارتكب خطأً كبيرًا لأنّه كان إنسانًا شريفًا ومستقيمًا. لم تكن المشكلة مشكلة ملابس فقط، فقد غُيِّرت أغراض البيت جميعها وأثاثه كله تقريبًا، فبيع طقم غرفة الجلوس المتكسر والأرائك والطاولات والكراسي وتم شراء أغراض جديدة بدلًا منها، كذلك تم تجديد بعض الغرف بلصق ورق جدران على جدرانها.

أُنفق الكثير من المال، ولم يتجرأ علي رضا بيك على التفكير في مدى عذاب شوكت، وماذا فعل من أجل تأمين تلك

المصاريف، وأراد التحدث مع ابنه عدة مرات أيًّا تكن النتيجة. لكن شوكت الذي يخشى مقابلة والده، تهرّب من الموضوع وخفض رأسه وقال لوالده بطريقة يائسة: «أعرف يا بابا... لكن هذا كله ضروري.»

أمّا خيرية خانم فقد أخرجت كل ما خبّأته في الصندوق، وباعت آخر قطعة ماس لديها بالمزاد. ولم يكن ذلك كله ليرضي أحدًا في البيت، وبدأ الصراخ يتعالى كل ليلة، وكان البيت يشهد وَلْوَلات وأزمات نفسيّة. لم تكن خيرية خانم تعير علي رضا بيك أيّ اهتمام، فلم تعامله كربّ أسرة في أيام اليسر، وكانت تضغط عليه أيام العسر، وعندما تتضايق ماديًّا، تقول له: «ألستَ أنت ربّ البيت؟ أنا امرأة عاجزة. ماذا أستطيع أن أفعل؟»

لكن المشكلة الأساسية كانت عدم ارتياح علي رضا بيك لعروس ابنه «فرهوندة» (فتون)[1]. تذكّر علي رضا بيك أول يوم رآها فيه. كان يظن أنه سيقابل امرأة مُحْرَجة ومتواضعة، امرأة تبكي لأنه تم الستر على شرفها واحتضانها من قِبَل أسرة محترمة، لكنه على العكس من ذلك، رأى أمامه مخلوقة خفيفة ومغرورة، «تتفهمن» وتبالغ كثيرًا، وترى أنّ لها حقوقًا لا نهاية لها. كان لديه كلام يجب أن يقوله لها من أجل سعادة ابنه وشرف الأسرة، لكنه تخلى عنه، بعد أن رأى أنها امرأة لا يمكن

(1) الأسماء في القصة كلها عربية ما عدا اسم الكنّة هذا، وقد ارتأينا تعريبه أسوةً بسواه، واخترنا لها بدلًا منه اسم «فتون» لأنه يعبّر عن شخصيتها في القصة. (الناشر)

التحدث إليها والتعامل معها، ولم يرَ مخرجًا له إلا أن يترك الأحداث تأخذ مجراها.

***

كانت الموسيقى لا تزال تصدح، ومن وراء النافذة التي تمّ فكّ قضبانها الحديدية قبل يومين بدت مجموعة من الناس تمرح وترقص.

فكّر علي رضا بيك في خيرية خانم. من المؤكد أنها الآن، تعمل وسط كومة من الصحون الوسخة تحت ضوء لمبة خافت، وتحاول تجهيز المقبِّلات للضيوف. كان علي رضا بيك قد استاءَ منذ زمن طويل من هذه المرأة التي تركته وحده في الأوقات الصعبة، لكنه على الرغم من ذلك كان متعاطفًا معها في تلك الليلة.

كم تعذبت هذه المرأة الضعيفة وهي تربي خمسة أولاد! وفي الوقت الذي يحق لها أن تجلس في زاوية بهدوء، كمن أنهى وظيفته وراح يتنفس الصعداء، كانت تقبع في زوايا المطبخ وتغرق في مشكلة جديدة كل يوم، فهل هذا حق؟

من المؤكد أنها ليست سعيدة ولا يمكنها أن تكون.

كان من المستحيل تغيُّر ربة بيت نظيفة فجأة بعد أن أمضت عمرها بين أربعة جدران، لم تر فيها سوى وجوه أولادها. ربما كان يجب البحث عن سبب هذا التغير في حبها الزائد لأولادها، لكنها بالنتيجة امرأة ساذجة وقصيرة النظر ولم يساعدها تفكيرها

على رؤية المستقبل. تصرّفت بشعور الأمومة الضعيف الذي يريد أن يمنع بكاء أولادها مهما كلّف الثمن؛ ومن المؤكد أنها كانت توافق على أشياء تنفر منها لمجرد تحقيق رغبة أولادها فيها، وتؤكد على ضرورة تحقيقها من أجل سعادة أولادها، ولا تتردد في إزعاج زوجها وإهانته منذ عشرات السنين. أجل كانا يحبّان أولادهما بالقوة نفسها على الأرجح، لكن مع الأسف كانت طريقة حب كل منهما لأولاده مختلفة.

كان علي رضا بيك مكسور الخاطر من ابنه قليلًا، لكنه سامحه تلك الليلة. وكان يشعر بالألم الشديد له. كانا قد تقابلا عدّة مرات خلال ذلك اليوم. ورأى ابنه يائسًا ومحتارًا مع أنه لم ينظر إليه بشكل دقيق، وكان وجهه الجميل مخطوف اللون فوق طقم عرسه الأسود.

كان قد اقترب من علي رضا بيك في زاوية هادئة، وقال له: «هل يمكنك سماعي قليلًا يا أبي؟» لكن صوته امتزج بدموع عينيه، وهرب بعد أن تحجّج بمناداة أحدهم من فوق. «شوكت... شوكت!»

تُرى ما الذي كان يريد هذا الولد قوله؟ كان علي رضا بيك يجهل ذلك. ويعتقد أنهما سيكونان أكثر ارتياحًا وأقلّ تشاؤمًا حتى لو كانا في أماكن مختلفة، إذا ما استطاعا التحدث مع بعضهما.

18

لم تخطئ ليلى ونجلاء في توقعاتهما، فقد كانت زوجة أخيهما امرأة منفتحة الفكر وجريئة أيضًا. يوم العرس كنّ يتحدّثن معًا، وفجأة قامت فتون بحركة وكأنها تشمّ رائحة الجوّ وقالت:

- هناك رائحة عفَن في هذا البيت. برأيي يجب فتح النوافذ والأبواب لتغيير الجوّ قليلًا. لا أدري إن كنتما لا تشعران بذلك لأنكما تعوّدتما شمّ هذه الرائحة!

رفعت الفتاتان رأسيهما إلى السماء في موقف حزين وجميل بحيث تجعلان أفضل ممثلة سينما تغار منهما. هل كانتا لا تشعران بشيء؟ عليكم توجيه هذا السؤال إلى داخلهما. كانت الفتاتان المظلومتان تنازعان الموت كعصفور سجين في قارورة خاويةٍ من الأوكسجين! كان والدهما رجلًا عجوزًا ذا تفكير قديم وأمهما امرأة عاجزة. أمّا أختهما فكرت فكانت متمسكة برزانتها ولم تترك معاتبة والدها على تفكيره القديم على الرغم من أنها لم تتجاوز العشرين من عمرها. وأمّا شعور الفتاتين نحو شوكت... فهو أنهما لا تعرفان سبب عدم وقوفه في موقع المؤيد للتجدد والترفيه حتى ذاك اليوم.

كانتا تتمنيان أن يتفتح قليلًا بفضل زوجته ويتصرف مثل شباب جيله. لكنه لم يستطع فعل أي شيء سوى البكاء معهن. إنّ انفتاح ليلى ونجلاء على فتون من أول يوم بثقة كبيرة،

وطلبهما النجدة منها بعيون دامعة، قد أحدث تأثيرًا في أعماقها. تفهمت المرأة مشاعرهما وقالت:

- آخ، أيتها البريئتان المظلومتان! كيف يتحملون بكاء عيونكما الجميلة؟ لا تقلقا... الآن أصبحنا ثلاثة أشخاص. بالتأكيد سنستطيع شرح مشكلتنا بطريقة ما.

لم يكن قول فتون «إننا أصبحنا ثلاثة أشخاص» تواضعًا منها، لأنها فهمت جيدًا أنها هي أقوى عضو، والعمود الأساس في فرقة عاصفة التجدد في البيت. لقد كانت هذه المرأة الشابة جريئة ومتحايلة بقدر ما كانت ذكية في الوقت نفسه.

استلمت إدارة البيت خلال بضعة أيام، وبدأت تحكمه بمفردها. وغاب علي رضا بيك، الذي كان يجول في البيت كالظل، عن الساحة تمامًا. كان يخرج من البيت في الصباح الباكر ويقضي يومه متجوّلًا في الأرياف أو جالسًا في المقهى.

توترت علاقة فكرت بوالدها، ولم تستطع الفتاة الشابة الانسجام مع أختيها وزوجة أخيها بأي شكل من الأشكال، فكانت تغلق الباب على نفسها في غرفتها طوال النهار بِعناد وحشيّ. كان علي رضا بيك مسؤولًا عن كل شيء جرى حسب رأيها. هل من المعقول أن يكون الوضع هكذا لولا إهماله مهامّه كربّ أسرة وعدم إدارة بيته بحزم يليق برجل قويّ؟

كانت الفتاة الشابة لا تتردد في قول ما تفكر فيه لعلي رضا بيك. كانت تَخِزُ والدها بطريقة مؤلمة عندما يكونان وحدهما معًا

في بعض الأحيان، وتقول: «ليس الأمر مهمًا بالنسبة إليّ. بالنتيجة أنا فتاة ظلمتها الحياة... لكني أتألم من أجل عائشة. فمن المؤكد أنها ستصبح عديمة الأخلاق بينهن.» فكان علي رضا بيك «يُجنّ» بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

لم تكن فكرت غير محقّة تمامًا حسب علي رضا بيك، فقد كان هو سببًا، بشكل أو بآخر، لما يحدث. لقد ارتكب ذنبين: أولًا: كان رجلًا شريفًا، وثانيًا: لم يكن يمتلك نقودًا، وفي ذلك جريمة لا تغتفر.

الآن بات الرجل العجوز يعطي زوجته الحق فيما قالته له عندما ترك العمل في «شركة ألطن يبراك» وتذكر كلماتها:

- برأيك هل تركك الشركة تصرّف جيّد؟ وما شأنك بعدم أخلاقية الآخرين؟ كنتَ تركتَ وصمة عار على نفسك فقط، لكنك كنت أنقذت أولادك من هذا الخطر.

ذات ليلة توسّل الرجل العجوز إلى زوجته، وطلب منها كيّ ملابسه. ارتدى ثيابه بدقة شديدة كما كان يفعل في الماضي. وحين أرادت زوجته معرفة سبب تأنّقه، قال لها:

- لا يوجد سبب...

واستأنف بجواب مبهم، وقال:

- سأزور صديقًا قديمًا.

كان يريد زيارة مدير «شركة ألطن يبراك المساهمة» مظفّر بيك، بحجة الاطمئنان إليه، فقد يوظفه طالبه القديم مرة أخرى.

صحيح أنّ علي رضا بيك قد عاهد نفسه أن لا يلتقي بمظفّر مرة أخرى. لكنّ زمن هذا القرار قديم، وهو لعلي رضا بيك القديم أيضًا.

لقد تغاضى عن الذنب الذي ارتكبه ابنه، لذلك لا يحق له الانتقاد أو محاولة الحديث عن الصدق بصوت عالٍ، فقد أصبح ذلك مضحكًا.

دخل علي رضا بيك غرفة الديوان أولًا، ورأى أنّ موظفين جددًا قد حلّوا محلّ أغلب أصدقائه القدامى. أمّا أصدقاؤه الذين كانوا ما يزالون في وظائفهم فقد واجهوا صعوبة في تعرّفه. ذهب الرجل العجوز بعد أن تأخر في الممرّ قدر الإمكان، وقرأ جميع الإعلانات المعلّقة على الجدران سطرًا سطرًا. لم يكن يعرف لماذا كانت يداه ترتجفان، وكأنه يقوم بعمل مَعيب، ولم يتشجع بأيّ شكل من الأشكال على دقّ الباب والدخول إلى غرفة المدير.

ربما كان سيتمشى في الممر، وسيقرأ الإعلانات مرة أخرى لاستجماع قوّته. لكن الباب فتح فجأة، وخرج مظفّر بيك بحقيبة ممتلئة بالأوراق.

ـ أستاذي... هل هذا أنت؟ كيف أحوالك؟ عسى أن تكون بخير؟

كان الرجل الشاب كمن لم يستغرب مشاهدة علي رضا بيك أمام بابه. شعر علي رضا بيك بالخذلان، كما لو أنه ارتكب ذنبًا ما، وقال:

- الحمد لله يا سيدي... رغبت في رؤيتك... كان لديّ شغل في هذه النواحي...

قطع مظفّر بيك كلامه، وقال:

- لم تُرد الذهاب من هنا من دون المرور للاطمئنان إليّ. شكرًا لك... كيف حالك؟ ما شاء الله، أراك لم تتغير. كيف حالُ ابنك؟ إن شاء الله بناتك بخير؟ من المؤكد أنهن كبرن...

كان مظفَّر بيك يريد إنهاء ما يجب قوله بسرعة، لذلك كان يسأل أسئلته واحدًا تلو الآخر. وكان في الوقت نفسه يفتح حقيبته، ويتفقد الأوراق الموجودة في داخلها، وقال:

- يا ابني هناك ظرف على الطاولة، اجلبه.

ومن ثَمّ صافح علي رضا بيك، وقال:

- أنا آسف يا أستاذي! لديّ عمل عاجل. سأكون مسرورًا إذا زرتني مرة أخرى في حال وقع طريقك إلى هنا. أستأذنك.

وترك الرجل العجوز في الممرّ، ونزل الدرج مسرعًا.

وبذلك خاب الأمل الأخير لعلي رضا بيك!

19

كانت ليلى ونجلاء قد حققتا مرادهما، وحصلتا على الحياة الحضارية التي كانتا تتشوقان إليها منذ سنوات.

كان بيت علي رضا بيك المتهالك والعجوز مثل صاحبه الكائن في «بغلارباشي» يقوم ويقعد بالحفلات، وكأنه يريد الانتقام مما حُرم منه.

كانت حفلات الشاي تقام للأصدقاء ليلتين كل أسبوع، وتلبّى دعوات الآخرين ثلاث مرات في الأسبوع. من جهة ثانية تمّت إزالة الواجهة البلورية الموجودة بين الباحة والمدخل، وأُلصق ورق بلون ذهبي على الجدران الباهتة. وكان يتم نقل جرّة الماء الموجودة في المدخل وطاولة الطعام التي في باحة البيت وبعض الأشياء الأخرى إلى المطبخ في الأيام التي يقام فيها الاحتفال، ويُنقل السجاد والكراسي والوسائد المزيّنة من الطابق العلوي ويعاد ترتيب صالة الاستقبال.

وفي أغلب الأحيان لم يكن هناك وقت لتجهيز الطعام وتناوله نتيجة كل ذلك العمل.

كان كل واحد يأخذ قطعة بسكويت وسندويش عن الطاولة التي تم تجهيزها من أجل الضيوف، ويتناولها بسرعة «على الواقف». كانت خيرية خانم تشمّر عن ساعديها وساقيها لتقوم بمهمة تقديم الخدمات في المطبخ بعد بدء مجيء الضيوف واحدًا تلو الآخر. ويحمل علي رضا بيك كتابًا وشمعًا بيديه،

ويصعد إلى السقيفة تجنبًا لسماع الضجة الآتية من الطابق الأرضي قدر الإمكان.

كان صوت الموسيقى يتصاعد من الغراموفون طوال الليل، والرقص يستمرّ من دون توقف في جوٍّ تتعالى فيه الضحكات الصاخبة والجنونية. وكان الغبار يتساقط من سقف البيت المتداعي، وكأنه يميد من جذوره. أما علي رضا بيك الذي كان يغفو أمام الشمعة التي تنطفئ غالبًا، فكان يرى أن البيت ما يزال يميد بالضجة عندما يستيقظ في الصباح الباكر.

وفي الليالي التي تذهب فيها الأسرة لحضور الحفلات عند الأصدقاء، لم يكن الوقت يتسنى للنسوة لتحضير الطعام، بسبب الاستعدادات التي لا نهاية لها. كانت الفتاتان ترتقان ثوبيهما المفتوقين مع زوجة أخيهما، ويجهّزن معًا الزينة المفبركة من قطع الملابس البالية، وكن يمسحن المناطق الظاهرة من أجسادهن بالكولونيا، ويطلين وجوههن أمام المرآة كما لو كن فتيات استعراض. وعلى ما يبدو كانت العصبية التي يتعرض لها كل أهل البيت من كبار وصغار تحيط بعلي رضا بيك أيضًا. كان الرجل العجوز يغضب وينتفض ويصرخ قائلًا إنه لن يتحمل تلك الترّهات. عندذاك تركض خيرية خانم، وتأتي أينما كانت، وترفع صوتها قائلةً:

«هل جننتَ يا علي رضا بيك؟ ماذا سنفعل؟ الآن أصبحت الحياة هكذا... يجب علينا أن نجد رجالًا لفتياتنا. لا أحد يسأل

عن الفتيات اللواتي يغلقن الباب على أنفسهن في هذا الزمن. نقوم بذلك من أجل إيجاد نصيب لهن. ماذا فعلت من أجل أولادك؟ دعهن يسيّرن أمورهن.»

كان شوكت يشاركها الرأي، ويقول:

- يا بابا، لقد تغيرت الحياة. لا داعي للخوف من السهرات المذكورة كما تتوقع... الآن أصبح العالم كلّه يعيش هكذا... ماذا نفعل؟ نحن مجبرون على مواكبة العصر... أنت لا تدرك مدى ضرورة هذه الأشياء، كونك رجلًا من الزمن القديم.

دُهش علي رضا بيك في بداية الأمر، واقتنع أنّ ابنه تغيّر و«تخرّب» مثل أولاده الآخرين. لكنه ما لبث أن فهم أنّ شوكت هو شوكت القديم.

لم يتغير أي شي في أفكاره ومشاعره... لم يكن راضيًا عن هذه الأمور، ولا عن هذا النمط من الحياة، ولا عن الناس الذين يدخلون بيته ويخرجون منه، لكن مع الأسف، كان الوضع قد خرج عن السيطرة، وانجرف مع التيار المخيف بسبب ضعفه تجاه زوجته، أو لأسباب أخرى. وكان الدفاع المذكور هو عبارة عن عذر لضعفه.

ألم تظهر هذه الحقيقة من خلال الإحساس باليأس والذنب الذي يُظهره ابنه عندما يتكلم معه؟ نعم، شوكت لا يزال شوكت القديم. كان يرى أن ما يحدث ليس ضروريًا لا في ذلك الوقت، ولا في أي وقت آخر. ماذا يفعل؟ خرج السهم من القوس.

أخـذ الألم يعتصر قلب علي رضا بيك على ابنه، بعدما أدرك هذه الحقيقة.

كان ابنه يذوب ويصغر يومًا بعد يوم. كان يأخذ حقيبته ويخرج إلى الشـارع من دون أن ينام بعد تلك الليالي الاحتفالية المميتة، ولا أحد يعرف كيف وأين يتعذب حتى المساء ثمّ يعود إلى البيت مسـاء، وهـو يائس متعب. لكـن لا أحد فهـم أو رأى أنه مريض إلـى درجة النوم في الفراش رأسًـا. كنّ يجررنـه إلى الاحتفالات الليلية معهن من دون السـماح له بتناول عشـاء مريح مع زوجته. كانت خيرية خانم لا تزال تسيطر على الإدارة، لكن زمام الأمور أفلت من يدها، فالنقود تُصرف في البيت مثل الماء المهدور. من أين كانت تأتي هذه النقود؟ هل كان شوكت يدّخر نقودًا، بحيث يمكنـه تسـديد المصاريـف المخيفـة، حتى لو اضطرّ إلى الشـغل بشكل مميت؟ أو أنّ هذا الولد غرق في مستنقع الديون؟

20

كانت قد مضت عدة أشهر على العرس. وبدأ نبع النقود يجفّ، بعد أن أُنفق مثل الماء، ومن دون حساب في بداية الأمر. وبدأ بعد ذلك فصل العراك. كان واضحًا أن شوكت يعاني من ضائقة مادية كبيرة، لأنه كان يهرب في بعض الأيام من دون أن يترك أي مصروف لوالدته، وكان يوكِل أهل البيت مهمة إنكار وجوده في البيت للدائنين الذين يدقّون الباب. وبدأ أهل البيت بالعراك فيما بينهم، كانت فتون تعصّب، وتصرخ في بعض الأيام، وتحاول ليلى ونجلاء الانتحار في أيام أخرى، وتبكي عائشة في بعض الأيام أيضًا. وتلهث خيرية خانم، التي كانت تعامل الجميع معاملة حسنة ورقيقة ما عدا زوجها راكضة هنا وهناك، وهي تتوسل إليهم، وتتوسط من أجل إصلاح العلاقات بين أهل البيت.

وصل الفقر إلى آخر حدوده. فالنار لا تشتعل، والطعام لا يحضّر في بعض الأحيان. وكان أهل البيت يشبعون بطونهم بالجبن والزيتون وما يرونه أمامهم في زاوية من زوايا البيت، باستثناء فتون التي كانت تخبئ في برّادها المربّى، وبعض المعلبات. وكانوا يلتفّون باللحاف في الأيام الباردة. لكن ما إن يأتي يوم الدعوات حتى يتغيّر كل شيء. يتصالح أهل البيت فيما بينهم، وتضحك وجوههم، ويبدأون بالعمل المشترك، فهناك من تحمل طاولة الطعام وتجهز الصالون، وهناك من ترتق الملابس المفتوقة، وهناك من ترتق الجرابات، وهناك من تكوي الملابس،

وتقوم ليلى بتقطيع القُصاصات الورقية بماكينة ثاقبة قديمة من أوراق الطائرة الورقية، في حين تشمّر خيرية خانم عن ساعديها وتدخل المطبخ حيث تقطع خبز الصمون البائت، وتحضّر السندويشات بفتات الجبن والسمن النباتي. كانت المرأة قد أصبحت اختصاصية مثل عامل البوفيه في المطعم، بحيث تقوم بخلط الزيتون الأسود بملعقة من الكافيار والنقانق وتعدّ أكلة كافيار رائعة وتصنع العنبري بغلي الفواكه مع بقايا الشراب الذي كانت تجمعه من بقايا الكؤوس من الحفلات السابقة.

كانت الفتيات اللواتي تعاركن عراكًا عنيفًا في صباح اليوم السابق، يطلين أظافر بعضهن بعضًا بكل سرور، و«ينتفن» حواجب بعضهن بعضًا في اليوم التالي، ويبدأن بالضحك والتسلية والمزح، وكأن شيئًا لم يحدث.

ومعنى ذلك أن الأولاد أصبحوا من دون إحساس وشعور وقليلي الذوق مثل الثيران والأبقار! وعندما يحاول علي رضا بيك قول شيء ما، يكون الجواب جاهزًا:

- ماذا نفعل؟ لا تظنّ أننا نفعل ذلك ونحن سعيدات، علينا إيجاد أزواج لنا.

ذات يوم أقنعت خيرية خانم علي رضا بيك بحضور الحفلات باستعمالها الحجة المذكورة، قالت له:

- اطلع، واحضر بين الناس بدلًا من التجوّل في السقيفة مثل النمس. هناك بعض الشباب الذين نستضيفهم في بيتنا يطلبون

الزواج من ليلى ونجلاء، ألستَ أنتَ والدهنّ؟ أنت الذي ستقول الكلمة الأخيرة. تكلّم مع هؤلاء الشباب، وحاوِلْ تعرّف أخلاقهم وأصلهم. لم تقم بأيّ مهمة من مهامّ الأبوّة، فقم بهذا الشيء على الأقلّ.

كان علي رضا بيك لا يرى شائبة في هذا الكلام. الآن ليس وقت الاستياء والانزواء، وبالنتيجة فإن ليلى ونجلاء ابنتاه، وطالما أنّ هناك من يفكر في الزواج منهما، من الشباب الذين تتم استضافتهم في البيت، فعليه بذل كل جهد لاختيار رجلين شريفين من بينهم. ولم يكن يرى أيّ حلّ آخر لمنع دمار حياة بناته وبكل وضوح. لقد تحمّل علي رضا بيك هذه الكارثة من أجل خاطر بناته.

كان علي رضا بيك يجهّز نفسه في زاوية من زوايا البيت، مثل الممثل الذي يستعدّ لتصوير مشهد من الفيلم. يطلي حذاءه، ويقصّ الخيوط التي تتدلى من بنطاله، ويخبئ الأماكن المشقوقة من قميصه تحت ربطة عنقه ويمشط شعره وذقنه. وعندما كان يدخل على الضيوف بجدّيّة، كما كان يدخل مجلس الإدارة في الماضي، كانت ابنتاه تتراكضان وتلوّحان بأيديهما وهما تُخرجانها من فستانيهما المرصّعَيْن بالخرز مثل الجوانح لا يزينها حلي، وتصرخان بطريقة مستهجَنَة:

- بابا... بابا الحبّوب الشابّ... وتعانقانه وتجلسان على الأريكة، وتجلبان السندويشات والبسكويت، وتحاولان زجَّها في فمه قسرًا.

كم كان ذلك سلوكًا بذيئًا أمام الضيوف! لقد رأى علي رضا بيك أنّ ابْنتيه تشبهان فتيات المسرح اللواتي يستهترن بممثل عجوز في الكواليس، ويعانقنه على المسرح ويقبّلنه للقيام بدورهن. كان يشمئزّ من نفسه، ومن ابنتيه في الوقت نفسه. لكنه كان مضطرًّا إلى تحمّل ذلك كما يتحمّل أشياء أخرى، فلربّما كان باستطاعته اصطياد زوجين لابنتيه من بين الضيوف، من خلال تمثيله هذه الكوميديا السعيدة، لكنه لم يرَ شخصًا واحدًا يمكن الوثوق به من بين طوابير الشباب الذين يدخلون بيته ويخرجون منه. هم أولاد شوارع في سن الثامنة عشرة والعشرين، جهلاء وأغبياء وقليلو الأدب في الوقت نفسه. هم أولاد شوارع يتحدث بعضهم بطريقة مخجلة ومقرفة عن القمار، وبعضهم عن النساء، وبعضهم عن المناورات الكبيرة في البورصة والتجارة، وبعضهم الآخر عن الميراث الذي ينتظره أو الذي أهدره. كانت أشكالهم تشبه أشكال الحشاشين والسكّيرين... وهم عبارة عن ثعالب هرمة تسرّبوا إلى العائلات من أجل كسب ودّ الفتيات الغافلات.

كان علي رضا بيك يعرف حقيقة تلك الوجوه، على الرغم من أنه كان يجلس في زاوية وكأنه لا يشعر بما يحدث، إلا أنّ قلبه كان يتلوى ألمًا من شدة الخجل كلما رأى ابنتيه تمزحان مع هؤلاء الشباب بكل أريحية.

كان وضع شوكت في هذه المجالس مختلفًا عن الجميع. ومن الواضح أن هذا الولد المظلوم يتعذب قصدًا لكنه مع

الأسف لم يستطع التخلص من هذا الفخ الذي وقع فيه. لم يكن شوكت يتحمل إجبار علي رضا بيك على حضور هذه الحفلات، وعندما كانت عيناهما تتلاقيان في بعض الأحيان كان يخفض رأسه، وكأنه يقول لوالده: «أنا الذي ورّطتك في هذه الورطة، سامحني.» ويتحجّج بحجّة ما، ويسحب والده إلى الخارج، وهو يهمس في أذنه ويقول: «يا روحي يا أبي، أرجوك لا تجلس بين هؤلاء إذا كنت تريد أن ترحمني.» ويهرب من دون انتظار أي جواب.

21

كانت فكرت تقبع منفردةً في إحدى الغرف في الطابق العلوي، ولا تخرج منها إلا للعراك في بعض الأحيان. وفي أحد الأيام نادت والدها إلى غرفتها وقالت له من دون مقدِّمات:

ـ أنا سأتزوج يا أبي.

فوجئ علي رضا بيك، وقال:

ـ ليُسعِدْكِ الله يا ابنتي.

ـ ربما ستغضب مني لأني اتخذت قرارًا كهذا من دون الرجوع إليك.

قال علي رضا بيك بابتسامة مُرّة:

ـ أغضب؟ لماذا سأغضب يا ابنتي؟ الذنب ليس ذنبك...

عبست فكرت، ثم قالت:

ـ توبيخك نفسَك ليس صحيحًا يا أبي...

ـ أنا لا أوبخ نفسي... أنا أنطق بالحقيقة... أنا أصبحت شخصًا فقيرًا. وأنا فقدت حقي في الأبوة مثلما فقدتُ حقي في كل شيء. تستطيعين فعل أي شيء تريدينه يا ابنتي طالما أني لا أستطيع تحقيق سعادتك...

تأثرت فكرت في بداية الأمر، وبدت كأنها تتألم من أجل والدها... لكنها عبست من جديد، وأظهرت قسوتها مرة أخرى، وقالت لوالدها بصلابة:

ـ دعنا نتكلم بصراحة يا أبي... كما تعلم أنا لست فتاة لا تمتلك

عقلًا. لم أفكر في يوم من الأيام بالاستياء منك، مثلما فعلَت أمي وأختاي لأننا بقينا فقراء ومن دون مال. ومن جهة أخرى، لم ولن أسامحك بسبب ضعفك تجاههن... إنّ شوكت شابّ جيّد... لكنّ زوجته، التي ليس لها أصل، استطاعت تهميشه والسيطرة عليه... أمّا ليلى ونجلاء فهما فتاتان مجنونتان لا تعرفان ماذا تفعلان... ووالدتي تذهب إلى المكان الذي نجرّها إليه، مثلها مثل الخروف... أفنيتُ نفسي وأنا أقول لك: «يا أبي افتح عينيك، هن سيجررن البيت إلى كارثة»... لكنك لم تبالِ... وانسحبت إلى الزاوية، وكأنك رجل غريب ليس من أهل البيت، واكتفيت بالحزن والاستياء. لم يكن ليحدث ما حدث لو تصرفت برجولة... صحيح، ربما تتأثر، لكن لا داعي للتستر على هذه الحقيقة الساطعة مثل نور الشمس. إن ما حدث، وقد يحدث، لن يكون جيّدًا، لأننا نذهب إلى حافة الهاوية... عندما نظرت إلى ما يحدث، رأيت أن لا أحد يفكر في إنقاذ الأسرة منه، فقلت لنفسي: «عليكِ بإنقاذ نفسك على الأقلّ»... وإذا تساءلتَ وغضبتَ وقلت: «لماذا تقوم هذه الفتاة بفعل هذا الشيء من دون استشارة أحد؟» فإنكَ تظلمني..

كان علي رضا يجلس على طرف صندوق، ويفرك رأسه الذي لم يبقَ فيه أي شعرة سوداء بيديه.

ـ الحق معكِ يا فكرت... أنا سبب كل شيء حدث يا ابنتي...

جلس الأب وابنته متقابلَيْن، وهما يفكران بصمت لمدة... لكن بعد قليل بدأ علي رضا بيك يوجه الأسئلة لابنته:

- هل الرجل الذي ستتزوجينه جيّد؟
- هو رجل في الخمسين واسمه تحسين بيك.
- أليس مسنًّا بالنسبة إليك؟
- هو كثير على فتاة مثلي...
- ماذا يشتغل؟
- يمتلك أراضي وكرومًا في مدينة «أدبازري»، ووضعه الماديّ جيّد...
- هل سيأخذك إلى هناك؟
- أنا وافقت على الزواج به من أجل ذلك.
- ألم يتزوج حتى الآن؟
- لقد توفيت زوجته في السنة الماضية، ولديه ثلاثة أطفال.
- كيف هو هذا الرجل؟
- يقولون إنه شخص لا بأس به. أنا لم أرَ صورة له حتى الآن.
- وإذا لم تعجَبي به؟
- أنا موافقة على أيّ رجل ينقذني من هذا الجحيم، وليكن كيفما يكن.
- هل توسّط له بعض الناس، من أجل طلب الزواج بك؟

ضحكت فكرت ضحكة غاضبة، وقالت:

- طبعًا سمع الناس يمدحوننا... وطلب لقاءهم، وقال لهم:

«اطلبـوا لي هذه الفتاة التي لا يمكن تعويضها بأيّ شـكل من الأشكال!!» إن هذا الرجل هو من أقارب جارتنا نيّرة خانـم... جاء إلى اسـطنبول منذ مـدّة وقال لها: «إنّ بيتي انقلب رأسًـا على عقب بعد وفاة زوجتي... إذا كنتم تعرفون فتاة ما، ترغب في أن تكون أمًّا لأولادي، فليس لديّ أيّ مشـكلة في الزواج منها.» قلت لجارتنا إنني موافقة على الزواج منه من دون أيّ تردد... فأرسَلت إليه رسالة، وجاء جوابه يوم أمس، وسأسافر إلى «أدبازري» بعد أسبوعين.

عندما كانت فكرت تشرح ذلك لوالدها بصورة مؤلمة وجدّيّة، كان علي رضا بيك يفكر في الأحلام التي بناها منذ طفولته... لم يستطع ضبط نفسه وقال:

- آخ يا ابنتي المظلومة...

رفعـت الفتاة رأسـها بطريقـة غاضبة، وقالت بعينيـن حاقدتين بوحشية:

- مـن الأفضـل يـا أبـي أن تخبـئ رحمتـك وشـفقتك لبناتـك الأخريات، سنرى ماذا سيكون مصيرهن.

***

ذهبت فكرت إلى «أدبازري» كما قالت بعد أن قلبت خيرية خانم الخزانـة رأسًـا على عقـب، مُحاوِلةً إيجاد بعض الأغـراض لتقدّمها لابنتها. لكنّ الفتاة الشابة رفضت ذلك باحتقار... وفي الوقت نفسه رفضت مرافقة أي شخص من أسرتها إلى هناك، وقالت:

- أنا أخرج من هذا البيت مثل الخادمة، فلا داعي لأن يتشرف أحدكم ويذهب معي.

وفي اليوم التالي وافقت فقط على مرافقة والدها وأختها عائشة إلى محطة «حيدر باشا»، وسافرت.

لم تودّع أختيها عند خروجها من البيت، ودفعت والدتها التي أرادت معانقتها بحركة عصبية...

لكنها أشفقت على والدها قليلًا بسبب الألم الصامت واليائس، الذي رأته في عينيه، بعد أن بدأ القطار بالانطلاق، فانحنت من نافذة القطار وقالت له:

- لا تحزن يا أبي... إذا ضاقت الحياة بوجهك فتعالَ إليّ... سأهتمّ بك كما لو كنت ابنًا لي.

وهكذا سقطت إحدى أوراق الشجرة وذهبت.

22

لم يبق إلا أمل واحد لعلي رضا بيك...

كان عليه أن يجد زوجين خيّرين لليلى ونجلاء من دون إضاعة أي وقت، فقد تنتهي تلك المهزلة بعد إزالة حجة إيجاد الأزواج لبناته. لكنه كان يعرف أنّ سبب الفساد يأتي من تحت رأس فتون؛ وأنّ المشكلة قد تهون ويصبح حلّها سهلًا عندما تخسر مؤيديها.

حضّر الرجل العجوز الكلام الذي سيقوله لابنه منذ الآن:

- يا بنيّ... أنا أحبك كثيرًا، بقدر ما كنت أحبك في الماضي... أنا ما زلت ربّ الأسرة حتى لو كنت عبارة عن عجوز تم رمْيُه... لم تنتهِ مهامّي بعد... ولن يستمرّ الوضع هكذا. أنت شابّ جيّد ونشيط رغم كل شيء. وأعتقد أنك ستشرح ما تريده لزوجتك إذا بذلْتَ قليلًا من الجهد. إذا كنت تشعر بالضعف أمامها، أو لم تستطع فعل هذا الشيء لبعض الأسباب الخاصة بك، فيمكننا فصل بيتينا... عندذاك لن أطلب منك أي شيء... وأستطيع العيش مع أمك وأختك عائشة وتدبير أمورنا براتب التقاعد الذي أتلقاه.»

وسيقول علي رضا بيك بعد حديثه مع ابنه: «لقد انتهينا من الحفلات والدعوات.» وقرر أن يضحّيَ بخيرية خانم في حال رفضت طاعته، وفي تلك الحال يمكنه الذهاب إلى إحدى بناته والعيش عندها.

هذه الكارثة التي عاشها علي رضا بيك منحته ميزة ثمينة وهي الشجاعة وعدم الخوف، على الرغم من أنها كلّفته الكثير. لم يعد الرجل الخجول والجبان الذي تربّى في «الباب العالي»، كما كان في الماضي. لم يعد يحزن لعدة أيام أو يتشبّث بأشياء لا تستحقّ الاهتمام. لقد تعوّد التناحر مع أولاده وزوجته في بيته مثلما تعوّد المواجهات المحتدمة مع صغار الكَسَبة في الشارع. في الماضي لم يكن يرفع صوته للدفاع عن حقه، إلا إذا رأى نفسه محقًّا إلى أبعد الحدود. أمّا الآن فقد أصبح يختلق مشكلة من دون أيّ سبب، ويوبّخ أيّ شخص يظهر أمامه كما لو كان طفلًا.

وقد يكون لتراجع صحّته يومًا بعد يوم علاقة كبيرة بتغيّره.

نعم إن الأحداث التي عاشها جعلت منه شخصًا مختلفًا. وقد أدرك جيّدًا أنه عندما يأتي الوقت المناسب لن يبقى عاجزًا عن الدفاع عن حقه وقناعاته كما كان في الماضي.

ليس من الصعب إيجاد صهرين من «أولاد الحلال» من بين الشباب الذين يحومون حول ابنتيه، ويدخلون البيت ويخرجون منه. بات علي رضا بيك يجلس بين الضيوف حتى في الأوقات التي لم يكن مرغوبًا فيه، وحتى لو لم يُدع إلى الجلوس معهم... إنه يبحث عن الرجلين المنقذين اللذين يمكن الوثوق بأخلاقهما مثله مثل «ديوجين» الذي يبحث عن رجل في الشارع في وضح النهار حاملًا بيده مصباحًا.

راقب عدة شباب يبدو حديثهم متوازنًا ورزينًا، من بين الشباب

الذين يدخلون بيته ويخرجون منه. فاخترع حججًا للتحدث معهم، وقام بتحقيقات سرّيّة عن طريقة حياتهم وأُسرهم، لكن لم يعجبه أيٌّ منهم.

لا شيء يدعو علي رضا بيك لبذل جهد كبير للوصول إلى حقيقة هؤلاء الشباب. لقد عرف أن وجوههم الخارجية لا تعبّر عن حقيقتهم، فهو ما إن يلمسهم برأس أصبعه قليلًا حتى تتهاوى الطبقة البرّاقة التي تحيط بهم بمكوِّناتها القطعة تلو الأخرى، ويظهر احمرار الجروح المقرَّحة الوسخة المقرفة، ولاأخلاقيتّهم المخبأة تحت تلك الطبقة.

شبّه علي رضا بيك هؤلاء ببيته وبصالون استقباله وبابنتيه. كانت الفتاتان تتجولان في البيت بملابسهما ومانطو والدهما القديم الذي لا يصلح إلا أن يكون ممسحة في المطبخ، وتتقاعسان عن رتق الأماكن المفتوقة من الملابس التي تغيَّر لونها من شدّة الوسخ، وتشبكانها بالدبابيس.

هاتان الفتاتان تحوّلتا إلى فراشتين تخرجان من شرنقتيهما في ليالي الحفلات من خلال فساتينهن المرصعة والمزينة بأشكال وألوان وأشياء أخرى.

يلزم أربعين شاهدًا للتصديق بأنّ الأفواه التي تغرّد مثل الحساسين، وتوزع المجاملات في تلك الحفلات، هي أفواه تتعارك وتقذف بألفاظ بذيئة مثل أولاد الشارع.

نعم، إن الشباب يخدعون الناس في الوهلة الأولى تمامًا مثل

ابنتيه. لكن حقيقة أغلبهم كانت تبعث على القرف والاشمئزاز أكثر منهما وكانت في الوقت نفسه تثير الشفقة عليهم.

قرر علي رضا بيك الموافقة على أيّ شخص من هؤلاء الشباب، بعد أن قطع الأمل في إيجاد الشابّ الذي يبحث عنه بين الشباب الذين يترددون إلى بيته. وقال في نفسه:

- إذا استمرت الفتاتان هكذا فإنهما ستقعان في فخ أحد الدونجوانات وستتشوه سمعتهما. عندذاك يصبح زواجهما أمرًا مستحيلًا. لذلك يجب عليّ أخذ الحيطة والحذر طالما أني أرفض أن تكون ابنتاي صيدًا سهلًا.

كان عليه أن يتخلى عن البحث عن مزايا عالية عند الشباب، وأن لا يتردد في الموافقة على أيّ شاب يقابله يمكنه سدّ حاجة بيته.

ذات يوم تحدّث علي رضا بيك مع سمسار يفكر في الزواج بليلى. كان هذا الرجل، واسمه تحسين بيك، يناهز الأربعين. وقد تزوج مرتين في حياته لكنه فشل في زواجه ولم يستطع تحقيق السعادة مع أنه كان رجلًا جيّدًا، وقدّم تضحيات كبيرة من أجل سعادة زوجتيه، لكن تينك المرأتين لم تتركا أيّ شيء سيئ إلا فعلتاه به، والأسوأ من ذلك أنهما تركتاه، وهربتا بعد أن لوّثتا شرفه. مع العلم أنه كان يربح أموالًا كثيرة من السمسرة، ولديه مشاريع كثيرة يمكن أن تجعله من بين أغنى الرجال في البلد.

لم يستطع علي رضا بيك أن يصدّق هذا الكلام، لأن لا أحد يستطيع الجزم بحقيقة قصص التضحيات التي قدّمها هذا الرجل لزوجتيه، ومدى الغنى والطيبة اللذين تحدّث بهما عن نفسه. لكن قد تكون هناك نسبة من الصحة مما تحدّث به هذا الرجل لا تتجاوز ثمانية أو عشرة في المائة، وإذا كان ما تحدّث عنه تحسين بيك صحيحًا نوعًا ما، ولم يكن نصّابًا أو شخصًا رديئًا، وبإمكانه كسب المال بحيث يستطيع سدّ حاجة ابنته فيمكنه أن يكون صهره. لذلك استمع الرجل العجوز إلى ضيفه حتى النهاية، وتظاهر أنه صدّق كل ما تحدّث عنه، لكنّ خيرية خانم وجدت قُصاصة ورق في الصباح التالي، عندما كانت تلملم السفرة. كانت تلك القصاصة عبارة عن رسالة كتبها الخيّاط لتحسين بيك، يؤكد فيها أنه سيحرّك دعوى نصب واحتيال ضده، في حال عدم تسديده خلال شهر ثمن البذلة التي خيّطها له قبل سنة!

تقدّم شخص آخر للزواج بنجلاء أيضًا ما أدّى إلى انشغال علي رضا بيك لمدة عشرة أيام تقريبًا.

كان ذاك الرجل في الثامنة والعشرين من عمره، ويظهر أنه رزين وأصيل، كان يعمل كاتبًا في البريد، ويتقاضى راتبًا ضئيلًا جدًّا. لكنه ينفق نقودًا كثيرة، ويدّعي انه يصرف من الميراث الذي ورثه عن عمه الذي توفي في إحدى الدول الأوروبية.

أجرى علي رضا بيك تحقيقًا حول هذا الشاب، بعد أن أصبح

الموضوع جدّيًا، واكتشف بسرعة أنّ ما ينفقه هذا الشاب من المال لم يرثه من عمه الذي توفي في أوروبا بل من صاحبته الستينيّة العمر التي تسكن في منطقة «حصار»!

23

أصبح تزويج ليلى ونجلاء بطريقة ما الهدف الأساس لعلي رضا بيك. كان الغضب يتملكه عندما يراهما ترقصان بين أحضان رجال غرباء، وتتحدثان وتضحكان وتمزحان معهم، وتمشيان شابكتين أيديهما بأيديهم في أماكن لا ازدحام فيها. أمّا الآن فلم يعد يشعر بهذا الألم والخجل كما كان في الماضي، وكان يغضّ الطرف عن تصرفات ابنتيه آملًا أن تصطادا زوجين جيدين بتصرفهما على هذا النحو.

بدأت تظهر وجوه جديدة من الشباب حول ليلى ونجلاء في بعض الأوقات، وكان بعضهم مؤدبًا وذا مظهر أنيق. كانت آمال علي رضا بيك تزداد في كل مرة، وكان يغضّ النظر عن قيام الشباب بأخذ ابنتيه من البيت في الليالي الجميلة، وإعادتهما من «أوسكودار» بالسيارة في أوقات متأخرة من الليل. لكنّ هؤلاء الرجال كانوا ينسحبون من حول ابنتيه، بعد أن يحوموا حولهما مثل الظل المشبوه، ويختفون مثل الدخان الذي يتلاشى في الأفق، بعد أن يعطوهما أملًا، ومن ثَمّ تبدأ البنتان بالبكاء والتخبط كأناس غرقت سفينتهم وسط المحيطات وهم لا حول لهم ولا قوة.

في السابق كان الجو يهدأ فجأة، عندما يدخل علي رضا بيك وسط الطبقة المخملية بثقل موظف كبير يدخل إدارات مجلس المحافظة، فلا يتجرأ أيٌّ من الرجال أو النساء الموجودين على

التصرف بطريقة غوغائية أو بطريقة غير لبقة، ولكنّ الوضع أصبح مختلفًا فيما بعد، فلم يعد أحد يخشاه أو يحسب له حسابًا، وصار الذين كانوا يخاطبونه في الماضي «بفخامة الأستاذ» لا يترددون في سرد قصص إباحية أمامه، حتى إنّ بعض النساء الوقحات كنّ يلححن في طلب الرقص معه، ويقلن له: «يا سيد، دعنا نرقص معك»، وكان الرجل العجوز يتلقى منهن بضع وكزات أحيانًا.

ماذا كان علي رضا بيك يعتقد عندما كان يفتش عن صهر خلسة بعد أن صارت صحته وأناقته تتراجعان يومًا بعد يوم...؟!

كانوا يستمتعون مثل المجانين في الظاهر، فيلهون ويضجّون ثمّ يرقصون إلى حد تحطيم الأرائك المهترئة في البيت، ويلعبون بعض الألعاب في الصالون، فكان بعض الرجال الملتحين يصعد على الكراسي، ويصيح مثل الديك، ومنهم من كان يمشي على يديه ورجليه ويقلّد الحمار، ويرفس ويرقص وينهق مثله تمامًا. ولم يفت علي رضا بيك رؤية المصائب والألاعيب المختلفة بين الناس الذين يُظهرون أنهم لا يريدون إلا الاستمتاع والمجون من خلال حفلاتهم المذكورة، فمنهم من كان يصاحب بشكل سرّيّ أو علنيّ من دون خجل، ومنهم من كان يخون شريكه، وهناك من كان يحترق بنار الغيرة، وهناك أيضًا من كان يغازل الشخص الذي يريد ويحاول إغواءه، وقد رأى بعض النساء يغمى

عليهـن فجأة في بعض الليالي، كمـا رأى من وقت لآخر رجلين ثمِلين يخرجان إلى الحديقة بحجة شم الهواء، ومن ثم يتعاركان ويجرحان رأسيهما.

كان علي رضا بيك يهرب من المطبخ الذي تشتغل فيه زوجته حتـى منتصف الليـل بين كومة مـن الأطباق والكؤوس الوسـخة ويصعـد إلـى الطابق العلـوي. وعندما تنهار ابنته الصغيرة عائشـة من شـدّة التعب كانت تذهب وتنام على الفراش البالي المحشـو بالقش اليابس.

كان علـي رضا بيك يمشـي على رؤوس أصابعـه، ويأتي إلى ابنته، ويقرفص بجانبها، ويطيل النظر إلى جسمها وعنقها النحيلين اللذين انكمشا بعدما غفت، وإلى وجهها الشاحب ويفكر ويقول: «آه.. ليـت بمقدوري إنقاذها على الأقلّ!» وفي إحدى الليالي لم يستطع كبح نفسه وهو يتأملها فبكى وأيقظ الفتاة الصغيرة بدموعه التي انهمرت من عينيه.

24

ذات ليلة جاءت خيرية خانم إلى غرفة علي رضا بيك حاملة بيدها صينية قهوة وقالت:

- شوكت أحضرَ قهوة طازجة من اسطنبول.

وبدأت تفتش الغرفة بعد أن وضعت القهوة بجانب علي رضا بيك:

- أصبح غطاء سريرك مثل المشمع من كثرة الوسخ يا علي رضا بيك... أعطني إياه في الصباح كي أغسله... أنت تسعل أيضًا... دعنا نُحضر المرهم غدًا كي ندهن ظهرك... ألم تبرد باللحاف؟ دعني أُعطك سترتي الصوفية الكبيرة لتلبسها.

كان وجه خيرية خانم جميلًا في تلك الليلة كوجه الملائكة، فقد أعدّت القهوة لزوجها بيديها، وشعرت أنّ غطاءه وسريره متسخان كالمشمع، وقلقت عليه من شدة سعاله، وقالت له إنها ستحضر المرهم له لدهن ظهره، وستعطيه سترتها الصوفية كيلا يبرد... كم كانت جميلة تلك المجاملات! لكن علي رضا بيك الناكر للجميل «قلب خلقته» بدلًا من أن يشكر لها عروضها التي أصبحت قديمة بحيث لا يمكن تذكّرها، وراح ينظر إلى زوجته بعيني حيوان يشكّ في اليد التي تربّت على ظهره وتحنو عليه.

جلست المرأة بجانب زوجها بعد أن انتهت من تفتيش الغرفة وقررت أخذ التدابير التي تريح زوجها وتسعده:

- أريد الدردشة معك قليلًا يا علي رضا بيك... ماذا سيحدث

لنا؟ فصل الشتاء أصبح على الأبواب... ليس في البيت قطعة حطب ولا فحم، ولم يبقَ لدينا أي لباس للبنات... بدأن يرتعشن من البرد منذ هذه اللحظة... ماذا سنفعل؟

فهم علي رضا بيك إلى أين سيصل الحديث منذ اللحظة التي رأى فيها فنجان القهوة بيد زوجته، لكنه كان يفكر بعمق... سألته خيرية خانم بعد أن انتظرت قليلًا:

- لم تقل لي أي شي يا علي رضا بيك؟

رفع الرجل يديه بكل هدوء وفتح كفّيه:

- ليس لديّ ما أقوله.

غضبت المرأة قليلًا:

- كيف... لا شيء تقوله؟ ألست أنت ربّ البيت؟

ردّ علي رضا بيك بابتسامة خبيثة باتت لا تفارق شفتيه وقال:

- طبعًا أنا أصبح ربًّا للبيت في الأوقات الصعبة، لكن الجميع يكونون هكذا إلا أنا. عندما يكون لديكم بضعة قروش تسيّرون حالكم بها لا أحد منكم يعتبرني بشرًا لكن عندما تتضايقون ماديًّا تأتون إليّ!

توقّع علي رضا بيك أن تتغاضى زوجته عمّا قاله وتردّ عليه بكلام مرّ وقاسٍ، ومن ثم تترك الغرفة. بصراحة كان يريد منها أن تتصرف هكذا، لأن خيرية خانم إذا غضبت اكتفت بالصراخ فقط، وتركته من دون أن تطلب منه الطلبات التي قد تكون تلبيتها مستحيلة، لكنها لم تغضب منه، واكتفت بانتقاد بسيط وقالت:

ـ أنت لم تكن هكذا في الماضي.

أيّدها الرجل العجوز وقال:

ـ صحيح، معك كلّ الحق... كنت رجلًا مختلفًا في الماضي، والآن فسدت أخلاقي... إنني أصرف ما أجنيه على النساء والقمار.

بلعت خيرية خانم ريقها عدة مرات، وعضت على شفتيها. على ما يبدو أنّ الجدال ليس لمصلحتها في هذه الليلة، لذلك ضبطت نفسها، وقالت له بصوت رقيق:

ـ ارحمنا يا علي رضا بيك... لمن سأشرح مشكلتي إذا لم أشرحها لك؟ هؤلاء عبارة عن قطيع من الأولاد... أنا وأنت المسؤولان عن هذا البيت، دعنا نجلس ونتحدث.

فهم الرجل العجوز أن ليس بإمكانه تجنُّب هذا الخطر الذي يشعر به مهما حاول، فقال بطريقة تظهر أنه موافق على كل شيء:

ـ حسنًا، ليكن هكذا يا خانم. قولي لي ماذا تريدين؟

لم يكن ما تطلبه خيرية خانم شيئًا لا يمكن تحقيقه، فشوكت لم يكن على ما يرام خلال الأشهر الماضية، لقد استدان الفتى قليلًا من النقود، وهي تشعر بالقهر من أجله عندما يتعرض لضغوط من قبل الناس الذين استدان منهم، لذلك يجب على والده مساعدته وهو الفتى الذي حمل هذا البيت الكبير على كتفيه في أيامه العسيرة.

تكلم الرجل العجوز بسرعة، وكأنه يريد الوصول إلى النتيجة سريعًا:

ـ حسنًا، إنني أوافقك على ذلك. لكنك لم تقولي لي الشيء المهمّ حتى هذه اللحظة... أين سنجد هذه النقود؟

طأطأت خيرية خانم رأسها بخوف وخجل وقالت:

ـ أنا أعرف أنك ستنزعج... فكّرتُ في حلّ مناسب، دعنا نأخذ من صندوق التسليف ثلاثمئة ليرة أو أربعمئة... شوكت يرى أنّ بإمكانه تسديدها خلال خمسة أشهر أو ستة...

ـ معنى ذلك أنك تحدثت أنت وشوكت وقررتما ذلك؟

بدت المرأة وكأنها صُعقت وقالت:

ـ لا... لا، أبدًا، لكنني أرى ابننا مهمومًا ومنزعجًا كثيرًا... آه... أنت لا تعرف كيف يكون قلب الأم يا علي رضا بيك...

قطع الرجل العجوز كلامها بعصبية وقال:

ـ حسنًا... حسنًا... مفهوم... لكنهم لا يعطون أيّ شي من صندوق التسليف من دون رهن.

ـ سنرهن البيت يا علي رضا بيك.

ـ ؟؟؟

ـ إن شاء الله سيسدّد شوكت هذا الدَّيْن خلال ستة أشهر أو سنة على الأكثر.

ـ ؟؟؟

ـ ألا تثق بابنك؟ ألا تعرف شوكت وكم هو شابّ مستقيم؟

ـ ؟؟؟

ـ أجِبْني، لماذا تنظر إليّ بهذه الطريقة الغريبة؟

رمش علي رضا بيك بعينيه وابتسم.

ـ لقد تغيّر العالَم، وأنا أتفهّم ـ إلى حدٍّ ما ـ تغيُّرَ أولادنا مع تغيُّر العالم، لكنني لا أفهم ماذا حدث لكِ ولماذا تغيّرتِ إلى هذه الدرجة؟

حاولَت خيرية خانم أن تضحك.

ـ أنت تتحدث عن أشياء غريبة يا علي رضا بيك، لماذا أتغيّر؟ أنا كما كنتُ في الماضي...

قاطع علي رضا بيك كلام زوجته بحركة عنيفة من يده بازدراء وقال:

ـ حاشَ لله! أين زوجتي الرزينة التي كانت مثل الملائكة؟ أنتِ لا يمكن أن تكوني ظفرها الذي ترميه في القمامة! وما الفائدة في أن تتكتمي على الأشياء التي أفكر فيها؟ أنت أصبحت امرأة مقرفة يا خيرية خانم، امرأة مقرفة. نحن لا نملك سوى هذا البيت المتداعي، فماذا سنفعل إذا ضاع منا؟ هل سنذهب إلى بيت الجيران ونموت هناك؟ كيف تجرأتِ على تقديم هذا العرض لي؟

نهضت خيرية خانم من مكانها بعنف وقالت:

أفهمكَ يا علي رضا بيك. لدينا مقولة شعبية تقول: الأب أعطى ابنه كرمًا من العنب، أمّا الابن فقد حرم والده عنقودَ عنب. الآن أصبح الكون يدور بالمقلوب، فالابن حمل والده وجميع أولاده على ظهره، لكنّ الأب يتهرب من رهن بيت متهرّئ من

أجل ابنه... هذا هو الأب الخيّر! إضافة إلى ذلك، هل هناك من داعٍ لتحقير امرأة تنفر وتشمئز من نفسها؟ هل البيت لي أم لك؟ ... يمكنك القول باختصار: لا أوافق، وعندها تنتهي المشكلة.

خرجت خيرية خانم من الغرفة وهي تبكي. ناداها علي رضا بيك وهي خارجة وقال:

- تعالي لا تفهميني بشكل خاطئ، أنا أرجو حسْن تفكيرك وإنصافك لي، وأسألكِ: ماذا سيحلّ بوضعنا إذا خسرنا هذا المنزل أيضًا؟ حسنًا... وافقتُ على مطالبكم... أعلم أنكم عندما تتمسكون بشيء فلن تتركوه... عاجلًا أو آجلًا ستحصلون عليه... وطالما أنّ الأمر كذلك، فلن أُتعب نفسي وأُتعبكم معي أيضًا من أجل لا شيء...

كان علي رضا بيك يعرف من خلال تجربته أنّ جميع أفراد العائلة كانوا سيضعونه داخل دائرة من النار، ومنذ الغد سيرى الفضائح والهجوم والتعذيب الذي سيناله حتى يُجبَر على الصراخ ويقول استسلمت!... إنه سيعاني منذ تلك اللحظة.

كانوا منجرفين وراء تيار، فما الفائدة من المقاومة؟ الشيء الذي يرفضه اليوم، ألن يتقبله عندما يحلّ الشتاء القارس، ويبدأ الأولاد بالتذمر من قلة الملابس والجوع وعدم وجود شيء يحرقونه للتدفئة؟

انتهت معاملة الرهن خلال بضعة أيام.

وتمّ أخذ مبلغ قدره حوالي أربعمئة ليرة من صندوق الضمان،

لكن هذا المبلغ لم يجلب الرفاهية المؤقّتة إلى البيت لشهرين أو ثلاثة على الأقلّ كما كان يتوقع علي رضا بيك.

تعرّض المبلغ الذي تبقّى بعد تسديد ديون شوكت الضرورية للنهب بين الأولاد. وبعد الضجيج والمشاحنات تم الذهاب إلى السوق وشراء الحرير الملوّن والمزخرف والمجوهرات التقليدية وعلب الألوان للوجه والعينين والخدين والشفتين والأظفار والشعر والأسنان، وأيضًا الجوارب الشبكية والأحذية التي ستهترئ وتُرمى كألعاب الأطفال في أول مطر يهطل، وأُحضر للصالون بضع لوحات مرسومة بألوان زيتية وتماثيل رخامية وحوالى ثماني أسطوانات تشارلستون وتانغو أو عشر.

أقيمت حفلتان للأصدقاء إحداهما في «تشمليجة» والثانية في المنزل، ولم يستطع علي رضا بيك الذهاب إلى سوق «أوسكودار» إلا مرّتين حيث اشترى سلّتين من المؤونة وحمْل بعيرين من الحطب فقط.

بعد مضيّ أحد عشر يومًا على سحب المبلغ من صندوق الضمان، لم يبق منه حتى ولو ليرة واحدة! واشتدّ هطول أمطار آخر الخريف التي بدأت بعد الظهر واستمرّت حتى حوالى نصف الليل، وبدأ سقف المنزل يدلف على الأسرة من أماكن عدّة. بعد ذلك بدأت الأصوات الموسيقية تخرج من طست الغسيل والطناجر وعلب الكونسروة المصفوفة ما بين السقيفة وغرفة الجلوس والغرف العلوية، وكان يُسمع صوت طفلة تبكي

باستمرار، كانت هذه الطفلة هي عائشة. كان الكبار قد حصلوا على طلباتهم، لكنّ الثوب الحريريّ والحذاء اللذين كانت تطلبهما منذ فترة لم يتم شراؤهما.

كان علي رضا بيك يسمع أصوات المطر الذي يدلف من التنكة تارة، وشكاوى عائشة المبهمة تارة أخرى، ويقول بينه وبين نفسه:

ـ نحن الاثنان اللذان خسرنا في هذا! ما الذي جرى لي كيلا أتذكر أن السقف كان يدلف؟ ألم يكن واجبًا عليّ أن أخصص مبلغًا من هذه الأربعمئة ليرة من المال الذي اختفى خلال عشرة أيام لترميمه؟

25

كان شتاء ذلك العام قاسيًا، بقيت الطرقات مقطوعة بسبب الثلوج أيامًا طويلة، وقدم ذئب وتجوّل بضع مرات بالقرب من المنزل الكائن في بغلارباشي.

كان القصد الأساس من وضع المنزل في الخريف قيد الرهن، قضاء هذا الشتاء بدفء وأمان وسلام، ولكن المبلغ الذي أُخذ تمّ صرْفه بالكامل تقريبًا في الأغراض الفاخرة التي لا تفيد في شيء، ولم يتمّ شراء كنزة صوف واحدة يتستر بها الأولاد ويتدفأون!

الحمد لله على ما تمتاز به خيرية خانم من حس في تدبير أموال المنزل: لقد وضعت المسكينة كل شيء كان موجودًا في الصناديق وزوايا الخزن من ملابس ومعاطف قديمة وقطع قماش مستخدَمة لتسميك فُرُش الأسرّة ووضع مدّات أرضية في وسط المنزل تخاطفها الأولاد وكأنها أغراض غنيمة. وخيّطت لعائشة النحيفة التي لا تتحمل البرد البتة معطفًا من قماش وجه سرير خشبي قديم، وصنعت له حشيّة من القطن الذي أخرجته من فراشها بدلًا منه. لقد تحوّل المنزل بهذه الألبسة العجيبة إلى ورشة عمل جهِّزت أمورها لتأدية مسرحية «الفتاة الزهرية».

كان هذا البيت القديم المسكين عرضة في كل يوم لعلّة مختلفة حسب التغيرات الجوية في الخارج كأيّ جسد مريض. كان سقفه يدلف حينما تهطل الأمطار أو عندما يبدأ الثلج بالذوبان، وعندما تهبّ الرياح تتطاير الأخشاب الواحدة تلو

الأخرى، وكان يُسمع الصفير والأصوات المختلفة من منافذ الهواء الموجودة في أنحاء المنزل وأطراف النوافذ والأبواب. ومع ذلك كان الأولاد قد اعتادوا هذا الوضع لشدّة فقرهم، ولم يبدوا متأثّرين لذلك كثيرًا حتى إنّهم كانوا يتسلّون بالسخرية من وضع المنزل وحالة ثيابهم. لقد أصبح المساكين كما كان يقول علي رضا بيك مخلوقات بلا شعور وأدب كالغجر.

وذات يوم كانت الفتيات بثيابهن العجيبة تلك ممسكات بأيدي بعضهن ويحاولن تقليد صوت المطر الذي كان يخرج من التّنك. كانت خيرية خانم قد رأت علي رضا بيك الذي كان ينزل الدرج وبيده منشار وهو يضحك، فصرخت بصوت متألّم وقالت:

- فليحيَ أبٌ مثلك...! كيف لا يضحك إنسان يُسعد أبناءه إلى هذه الدرجة بفضل فضيلته واستقامته...؟

أثّرت هذه الكلمات في نفس الرجل العجوز وهزّته من رأسه حتى أخمص قدميه وجعلته يجلس على إحدى درجات السلّم ويوقع المنشار أرضًا.

***

كان ذاك المنشار المساعد الأكبر لعلي رضا بيك في ذاك الشتاء القارس الطويل. كان يخرج في الأيام الباردة مرتديًا بعض الثياب العتيقة ليحصل على حطب يقطعه من الأشجار الموجودة في الحديقة، ماذا يفعل؟ لا يستطيع الإنسان أن يتحكم إلا في

ممتلكاته، دعه حتى يأتي يوم لن يجد فيه شجرة يستظل بها في الصيف. في الحقيقة لم تكن تلك الأشجار التي رعاها بيديه منذ سنوات إلا كأيّ ولد من أولاده ولكنها في كل الأحوال لم تكن بأهمية أولاده.

لم يفارق المرض بيته طوال فصل الشتاء، فما إن يشفى أحد أولاده حتى يقع الآخر فريسة المرض، حتى إنّ علي رضا بيك نفسه أصيب ذات مرة بمرض الأنفلونزا، وخلال تلك المدة لم يأت أحد إليه سوى زوجته التي كانت تُحضر له الحساء بين الحين والآخر، وكانت تقول له:

ـ ما شاء الله! أراك اليوم بصحة جيّدة... حَذارِ أن تعرّض نفسك للبرد... لا بأس عليك... ستتجاوز هذه الأزمة... وأنا أيضًا مريضة بالقدر الذي يُقعدني في الفراش... ولكنهم لا يسمحون لي...

ربما كانت خيرية خانم تقول هذه الكلمات كنوع من الاعتذار لزوجها لأنها لم تكن تعتني به بالقدر الكافي وربما كان ما تقوله هو الحقيقة بعينها.

إنّ إهمال أولاد علي رضا بيك إياه قد أثّر فيه كثيرًا، فحسب رأيه يتمنى الإنسان أن يكون له أولاد لكي يسمع صوتهم حوله في أيام كهذه، ولكي يرى وجه إنسان هو فلذة كبده، لكن معاملة أولاده له عنت أنه لو كان مرضه أشدّ من ذلك فلن يسأل عنه أحد، وأنه كان من الممكن أن يموت وحيدًا كغريب مريض في

زاوية من زوايا فندق في الغربة، على الرغم من العدد الكبير من البشر في المنزل...

ولكن في وقت متأخر من إحدى الليالي دخل عليه ولده شوكت، وجلس على حافة السرير متعبًا خجِلًا، وداعب وجه والده بلطف، وتحسس حرارة وجهه، ثم أخذ نفسًا عميقًا وقال:

ـ أبي، لم أستطع المجيء والاطمئنان إلى صحتك...

قال ذلك دون أن يُظهر تأثرًا كبيرًا أو أن يقدّم عذرًا ملفّقًا، إذ إنه يخشى أن يتشبّه بالإنسان الكاذب في حال قال شيئًا آخر كي يغطي أخطاءه، كان ينظر أمامه بوجهٍ مكفهرّ.

تحدّث الأب والابن بأمور شتى لمدة خمس دقائق إلى عشر، كان شوكت يسعل سعالًا شديدًا أحيانًا، ويدلّك صدغه بأصابعه وكأنه يعاني ألمًا شديدًا في رأسه.

سأله علي رضا بيك:

ـ هل أنت مريض يا بنيّ؟

أجاب شوكت بعد أن تردد قليلًا:

ـ لا يا أبي.

هزّ علي رضا بيك رأسه وعلى وجهه ابتسامة تعني أنه لم يصدّق:

ـ هكذا، ولكن عندما وضعت يدك على جبيني كانت كف يدك تشتعل أكثر منّي.

ـ يبدو لك الأمر كذلك يا أبي...

- ممكن يا ولدي...

- تعبت قليلًا فقط... إذا سمحت لي أريد أن أخلد إلى النوم يا أبي...

- حسنًا يا ولدي... هيا، اذهب وأرِح نفسك...

افترق الأب والابن وكلّ منهما يتردد في أن ينظر أحدهما إلى الآخر، وكأنهما يخافان أن يتبادلا الأفكار التي تخطر ببالهما.

أطفأ علي رضا بيك الشمعة الموجودة بجانب سريره وبدأ يفكّر وهو يتطلّع في الظلام:

- من المؤكد أنّ ولدي مريض... ولكني تغاضيت وكأنّي لم أفهم ذلك، وإلا كان يجب عليّ أن أقترح عليه أن ينام في غرفة دافئة وينعم بسرير دافئ لثلاثة أيام أو حتى خمسة، مع أني أدرك أن الولد المسكين ليس لديه حتى يوم واحد ليرتاح فيه باستثناء بضعة أيام في السنة... إنه يعرف أن أمور البيت ستتأزم إذا لم يخرج إلى الشارع في الصباح الباكر ويذهب إلى هنا وهناك وهو مريض.

ذلك المسكين أحوج إلى الشفقة مني... يتركونني مرتاحًا في زاويتي ولا يهاجمونني لتقصيري في جلب الخبز وأنا في هذا الوضع... فيجب عليّ أن أشكر الله على حالي.

مع ذلك لا الشتاء ولا المرض غيّرا أيّ شيء في برنامج البيت.

كانت القوارب والعبّارات تتوقف في عواصف الثلج القويّة

ولكنّ الحفلات المسائية في منزل علي رضا بيك لم تتوقف.

كلما حلّت ليلة الوليمة ظهر الحطب والطعام والشراب المخزّن في البيت وخُلعت المعاطف البالية والعباءات المثقوبة والمعاطف المصنوعة من أغطية الطاولات وتمّ ارتداء فساتين السهرة الحريرية أمام المرآة وتطرية الأيدي الخشنة من البرد بالماء الفاتر الموضوع فيه الفازلين وإصلاح العيون المحمرّة من الرشح والأنوف المنفوخة بكريمات وموادّ تجميلية مختلفة، وأمّا الأفواه التي تفوح منها رائحة طعام السجق والبسطرمة فكانت تعالج بعلك موادّ تزيل الروائح منها والغرغرة بمياه بنكهة معطّرة.

وأخيرًا حلّ يوم الإفلاس المنتظر منذ زمن بعيد، وأخذ المطالبون يصرخون يوميًّا على الأبواب وبدأت كتب الإخطارات تصلهم من محكمة الصلح.

كان شوكت يُلقي بنفسه في الشارع قبل أن يبزغ الصباح كيلا يلتقي المطالبين ويرجع في آخر الليل. انتهت صراعات الفِرق في العائلة، وبدأ كل واحد منهم يهتمّ بأمور نفسه، ولقد وصلت الوقاحة بهم إلى حدٍّ أنه كان يُسمع أحيانًا من يشكو سرقة أغراضه وحوائجه بصوتٍ عالٍ، وبخاصة فتون التي تجاوزت حدودها كثيرًا، فكلّما شعرت بالضيق شاكست من تصادفه أمامها، وإذا حدث وردّ أحدهم عليها ازداد غضبها، وصرخت قائلة: «ما الذي أوقعني بين هؤلاء الشحّاذين؟ فهم من جهة يأكلون على مائدة

زوجي ومن جهة ثانية يعاندونني! لو لم تكونوا معنا لعشت عيشة رغيدة مع زوجي!»

في حالات كهذه كان علي رضا بيك يصمّ أذنيه ويهرب إلى الشارع، أمّا خيرية خانم فكانت تبكي متنقلة بين هذا وذاك من أجل الصلح بينهما، وفي كل واحدة من هذه المشاجرات كان المنزل يبدو على وشك الانهيار فتارة تبدأ فتون بجمع أغراضها، وأخرى تهرب ليلى إلى الشارع ولسان حالها يقول: «سأعمل خادمة إذا لم أجد مكانًا يؤويني، وربّما أعمل نادلة في أحد المطاعم.»

ولكن في كل مرة كان الشجار يهدأ ربما بسبب جهود خيرية خانم، وأحيانًا بسبب بكاء عائشة وتوسلاتها، وتارة ثالثة لأن قلة الأدب والشر كانا كافيين لتهدئة الأعصاب، وفي النهاية كان السلام يحلّ في جوٍّ من النحيب وتبادل القبل.

لقد اكتسبت خيرية خانم التي كانت تمرض أحيانًا في الأيام المريحة السابقة، قدرة غير معقولة على المقاومة، فقد كانت تواجه كل مصيبة بصبر وعناد في الوقت الذي كان يبدو عليها أنها ستنهار بسبب وقوع أعمال المنزل وهموم الأسرة على عاتقها.

بدأت في ذلك الوقت بالتردد إلى سوق «أوسكودار» يوميًّا وهي تحمل صرّة بيدها، يبدو أنها كانت تبيع جزءًا من أغراض البيت، وكانت تعود بحفنة من القروش وقليل من الأطعمة لتسدّ بها فم من يلحّ في الطلب أكثر من غيره.

***

كان علي رضا بيك يستلم رسائل مؤلفة من ثلاثة أسطر من فكرت أو خمسة بين الحين والآخر. وكانت هذه الرسائل تكفي لأن تعلمه أن ابنته بصحة جيدة حتى لو لم تكن سعيدة كثيرًا، وكانت الرسائل تواسي هذا الرجل العجوز إلى حدّ ما.

ولكن فكرت قللت أدبها في إحدى رسائلها التي بعثت بها قبل أربعة أشهر فقالت فيها: «تصلنا أخبار ـ مع الأسف ـ غير جيدة عن بيتنا وتجبرني على إخفاء وجهي بيديّ أمام زوجي من شدة خجلي. ألم يئن الأوان لتضعوا حدًّا لهذه التصرفات؟!!!»

لم تكن فكرت مخطئة، ومن الممكن أيضًا أن تكون قد كتبت هذه الرسالة بضغط من زوجها، وعلى الرغم من ذلك فقد أثّر هذا التوبيخ في علي رضا بيك أيّما تأثير ما جعله يردّ على ابنته فكتب إليها ما يلي: «كل إنسان مسؤول عمّا يقوم به، وأي رابطة بقيت بيننا لكي تشعري بالعار مما يحدث هنا؟ كنتِ بين الحين والآخر تطمئنيننا بالرسائل التي تبعثينها إلينا. حتى هذه وجدتِها كثيرة علينا، وأنت أدرى!»

لقد ندم علي رضا بيك فيما بعد على هذه الرسالة التي كتبها في لحظة غضب، ولكن لم يعد باليد حيلة، فلقد خرج الأمر من يده، ومنذ ذلك اليوم وحتى ذلك الحين لم تسأل فكرت عن والدها، كما أنّ عزة نفس علي رضا بيك لم تسمح له بكتابة أيّ رسالة أخرى.

في يوم من أيام الضيق الشديد ماليًّا جاءت خيرية خانم إلى زوجها مهرولة وقالت:

- يا علي رضا بيك... يحاصرنا الدائنون من كل جانب... ولا خير يُنتظر من شوكت الآن... والأولاد جوعى... اكتب رسالة إلى فكرت... واشرح لها وضعنا وحالنا... أليست ابنتنا؟ لمَ لا تساعدنا؟ في المستقبل عندما يصلح حالنا سنسدّد لها الديون... وإن رفضت فلن نخسر أيّ شيء... لا شك أنّ صهرنا رجل ميسور الحال...

كانت خيرية خانم تأمل من زوجها أن يقول لها: «حسنًا» إذا ألحّت عليه، ولكن علي رضا بيك اشتعل غضبًا فجأة وبدأ بالصراخ وهو يمشي نحوها كمن يريد تمزيقها وهو يقول:

- لا أريد منكِ لفظ أسماء هؤلاء مرة أخرى... سأخنقك إن فعلتِ... لم نصدّق أنّ أحد أولادنا قد أنقذ نفسه وها أنتِ تسارعين لإغراقه... هل سنفتح أيدينا كالشحاذين لرجل غريب ونضع وجه فكرت في الوحل؟ أهذا ما تريدين؟ لا أريدك أن تلفظي اسمها مرّة أخرى وإلا فسوف أقضي عليك...

كان صراخ الرجل العجوز يهدر بشكل وحشيّ إلى درجة أنّ خيرية خانم خافت كثيرًا ولم تأت على ذكر ابنتها مرة أخرى.

26

غاب شوكت عن البيت يومين متتاليين. بدأت الشكوك تساور فتون التي كانت قد حردت من زوجها منذ أسبوع، وقالت: «إنه يفعل ذلك لمجرد معاندتي. أنا أعرف ماذا سأفعل به إذا لم يأتِ غدًا، سأشدّ رحالي وأذهب من هذا البيت...»

لكن خيرية خانم كانت ترى الأمور بشكل مختلف، وتظن أن ابنها ذهب إلى أحد أصدقائه كي يهرب من الناس الذين يطالبونه بالديون، وأمّا ليلى ونجلاء فقد كان القلق على أخيهما يسيطر عليهما في بعض الأحيان، وتتساءلان: «ماذا حدث لأخينا؟ نرجو الله ألّا يكون قد تعرّض لحادث ما.» لكنهما كانتا مهتمتين بأمر مهم، فلم يستمرّ قلقهما طويلًا، لأنهما كانتا تجهّزان ثوبين لحضور حفلة دُعِيَتا إليها.

وبالنسبة إلى علي رضا بيك، فإنه كان يترنح قصدًا في المكان الموجود فيه، مثل طفل المدرسة الذي حفظ درسه، ويزمّ شفتيه، لكنه لا ينطق حتى بكلمة واحدة. ثمّ لا يلبث أن يصرخ بصوت عالٍ عندما يسمع أيّ ضجة في الحديقة ويقول: «جاء شخص، اركضوا لتروه!»

في صباح اليوم التالي جاء رجل أمن مدني، وأخبرهم أنّ شوكت في السجن بسبب مشكلة.

تعالت الصرخات والضجيج في البيت، وأُغمي على فتون وبدأت الفتيات بالبكاء، وقالت خيرية خانم التي فوجئت بهذا الخبر:

«خير إن شاء الله... خير إن شاء الله...» واضطرت في الوقت نفسه إلى الاهتمام باللواتي يبكين ويُغمين وينتفن شعورهن.

لكن ملامح وجه علي رضا بيك كانت توحي بأنه قد خرج من مشكلة كبيرة. كان الرجل العجوز يبكي بغزارة وبهيَجان وكأنّ خبرًا مفرحًا قد وصله، ويحتفل ويقول: «الحمد الله، ابني سليم، إنّ شوكت حيّ... على قيد الحياة!» فالعجوز لم يضع في الحسبان نسبة واحد بالألف بأنّ شوكت على قيد الحياة.

وعلى ما يبدو فإن توتر أعصابه وانهياره نهائيًا ـ بسبب الشيخوخة ـ قد أدّيا إلى تسلّط الخوف عليه في الأيام الأخيرة فكان يقول: «من المؤكد أنّ ابني سيقتل نفسه... لا يمكن لإنسان شريف مثل ابني تحمّل هذا الوضع المُزري!»، وكان يتمنى الموت عند سماعه كل كلمة أو رؤيته أيّ تصرّف يصدر عن ابنه.

ظن علي رضا بيك في ليلة من الليالي أنّ دويّ انغلاق الباب بطريقة سريعة هو صوت طلقة مسدس، ولذلك توجّه إلى غرفة ابنه. وفي ليلة أخرى صرخ لأنه ظن أنّ قطعة الملابس التي تم نسيانها على أغصان الشجرة إنسان مشنوق!

نعم كان يعتبر أنّ ابنه إنسان شريف جدًّا ومن المؤكد أنه سينتحر عندما يتأكد أنه لن يستطيع الخلاص من المستنقع الذي وقع فيه، وأراد عدة مرات البوح بمخاوفه المذكورة لابنه شوكت، وأن يوصيه بالتحلي بالصبر والقوة قليلًا. لكن كان هناك خطر آخر بهذا الصدد، وهو أنّ شعوره المذكور حيال شوكت ربما

كان غير صحيح وعبارة عن هلوسة منه، لأن الناس الذين يخيب أملهم كثيرًا يشبهون مَن تفاقم مرضهم، ومن المحتمل أن يكون الرجل الشاب قد تمسّك بالحياة بقوة أكثر من أيّ وقت مضى على الرغم من انقطاع أمله.

إنّ التحدث عن الموت جعله يفكر في الدواء الأخير لجميع مشاكله. ارتدى علي رضا بيك ثيابه بفرح، وأخذ عصاه وخرج من البيت. كان المساءُ قد حلّ حين وصل علي رضا بيك إلى السجن. قال له الحرّاس عند الباب:

- أصبح الوقت متأخرًا... عليك أن تأتيَ غدًا...

بدأ علي رضا بيك يصرّ على زيارة ابنه من دون أن يتوسل إلى الناس، ولم يخش احتقارهم له كما كان في الماضي. ظنّ أنهم ربما يطردونه إذا أصرّ أكثر من ذلك، لكن لحسن الحظ أنه رأى شخصًا من معارفه القدامى كان قد عمل كاتب ديوان تحت إمرته في إحدى المحافظات، عرفه هذا الشخص وجاء إليه وسأله ماذا يريد بعد أن قبّل يده.

قال الرجل العجوز:

- ابني سجين عندكم، ولا يسمحون لي بزيارته لأن الوقت أصبح متأخرًا، هل يمكنكم مساعدتي؟

رجع كاتب الديوان القديم خطوة إلى الوراء وفتح عينيه بدهشة واستغراب من أمر علي رضا بيك: كان كاتب الديوان لا يفهم كيف أنّ هذا الرجل الوقور وصاحب الفضيلة الذي يعرفه

عن كثب، تحدّث عن ابنه الذي دخل السجن بسبب جُرم قد ارتكبه.

وعلى ما يبدو أنّ هذا الرجل كان سيصبح من المسؤولين الكبار في السجن، لأنهم، بكلمة واحدة منه، سمحوا لعلي رضا بيك بزيارة ابنه فورًا. رأى الرجل العجوز ابنه ينام ويشخر فوق السرير، فخطرت بباله ذكرى قديمة بشكل لا إرادي على الرغم من أنه لم يكن ذاك وقتها ولا مكانها.

كان ابنه يحب نوم الصباح كثيرًا، وكان علي رضا بيك يدخل إلى غرفته بهدوء عندما كان طالبًا ويُحدِث ضجة كبيرة برمْي كتاب على الأرض أو بصفقة قوية، حتى إنه في يوم من الأيام صفر بصفّارة كانت موجودة بجانب رأس ابنه ما أدّى إلى نهوض الولد من سريره كالمجنون.

كان ابنه يفتح عينيه ويقول له: «توقف قلبي من الرعب يا أبي!» كانت تلك أفضل تسلية بالنسبة إلى علي رضا بيك. لقد مضى كثير من الأحداث والسنوات، وعلى الرغم من وضعهم المذكور كان علي رضا بيك يعيش الذكريات الماضية في ذلك الوقت، والأغرب من ذلك أنه لم يكن يشعر بأيّ ألم أو حتى بفقدان الأمل في داخله. لمس الرجل العجوز رأس ابنه وقال:

ـ استيقِظ يا شوكت قليلًا... أنا جئت يا بنيّ...

انتفض الشابّ قليلًا وفتح عينيه واستقام فوق سريره، ولم تظهر عليه أية علامة تأثر مثل والده.

وضع ظهر يده على فمه وتثاءب وقال:

ـ كنت انتظرك يا أبي... لكنني قطعت الأمل من مجيئك بعدما اقترب المساء، لذلك نمت... لا أدري ماذا حدث لي خلال اليومين الأخيرين... أغفو أحيانًا وأنام من دون أن أحسّ بذلك.

وأسند شوكت رأسه إلى الجدار وابتسم ونظر إلى والده الذي كان لا يزال واقفًا على قدميه أمامه، وأشار له بيده وقال:

ـ اجلس يا أبي.

كانت ملامح التعب والتوتر قد تلاشت من على وجه الرجل الشاب، وتموّج في وجهه ذلك اللون البنفسجيّ الخفيف الذي يُرى في وجوه الناس الذين تخلّصوا حديثًا من سموم مرض فتّاك.

سأله علي رضا بيك بعد أن استند إلى عصاه وجلس بصعوبة:

ـ ماذا حلّ بك يا بنيّ؟

هزّ شوكت كتفيه وقال:

ـ كنت أتوقع حدوث ذلك عاجلًا أو آجلا، ماذا نفعل؟ هذا مكتوب، إنه قدرنا.

ـ هل حدث هذا الشيء بسبب ديونك؟

تردد شوكت قليلًا، وحاول أن يجلس باستقامة في مكانه، لكنه ارتخى مرة أخرى وأخذ يدي والده بين يديه، وبدأ يتكلم بهدوء، وهو يرنو إلى حزمة الضوء التي تسرّبت من النافذة إلى السقف.

ـ مع الأسف، إنّ وضعي أسوأ مما تتصور، لقد صرفت مبلغًا

كبيرًا من نقود البنك، وجاء المفتشون قبل أن أعيدها، ولكنّني كنت أدرك أنّه إذا استمرّ الوضع هكذا فلن أستطيع إعادتها حتى خلال خمسة عشر عامًا... الإنسان يضيّع طريقه أحيانًا... إنه وضع سيّئ جدًّا...

يبدو أن شوكت قد قرر شرح المشكلة لوالده بالتفصيل، لكنه توتر فجأة وشعر علي رضا بيك بتقلّص أصابع يدي ابنه التي كان لا يزال يمسكها بين يديه.

- لا تحزن يا بنيّ... قد يحدث أيّ شيء للإنسان.

ثم غيّرا الموضوع.

سأله شوكت عن أخواته ووالدته، وتحدّث معه عن عائشة مطوّلًا، وبدأ يتحدث عن الأشياء التي قرر التحدث بها إلى والده منذ سنوات لكنه لم يكن يجرؤ على البوح بها سابقًا.

- كنتَ تثق بي أكثر من جميع أولادك، إلى أن أصبتُك بأكبر خيبة أمل يا أبي المظلوم. كم أتمنى مساعدتك في أيام شيخوختك! لكن مع الأسف لم أعد أستطيع ذلك... لا أعرف كيف انزلقت رجلي ولم أستطع النهوض ثانية. لا أعرف لماذا يتزوج رجل مثلي، والأغرب من ذلك أني لم أكن أستطيع فعل أيّ شيء على الرغم من أنني كنت أرى نفسي أسقط نحو الهاوية! كان وضعي يشبه الشخص الذي يشعر بثقل كبير عند نومه، ويشعر بذلك في نومه، ويحاول النهوض، لكنه لا يستطيع حتى تحريك إصبعه. هكذا كان الأمر تمامًا. هل تصدّق يا أبي؟

كنت أرى كلَّ القذارة، وعلى الرغم من ذلك كنت أتظاهر أني لا أشعر بأيّ شيء! لن تتوقّع أبدًا كم كنت أخجل عندما كانت عيناي تلاقيان عينيك وكم كنت ألعن نفسي!

ربّت علي رضا بيك على يد ابنه وقال:

- أعرف يا شوكت، أنا لا أشكّ في أخلاقك أبدًا.

لم يستطع علي رضا بيك البقاء عند ابنه أكثر من ذلك لأن الوقت أصبح متأخرًا، وخرج وقرر زيارته في اليوم التالي. ونظر حوله لتحديد الأشياء التي يحتاجها ابنه، لقد خيّم الظلام، وكانت هذه الساعات من الوقت تُحزن حتى أسعد الناس. لقد ترك جزءًا من لحمه ودمه في السجن الذي يُعتبر مقبرة للأمل والشرف.

إنّ اجتماع هذه الأشياء كلها يكفي لوقوع الرجل العجوز في حالة يأس جنونية. لكنه لم يتألم كثيرًا في تلك اللحظة لا بل إنه فرح قليلًا.

رأى الرجل العجوز شوكت يتثاءب، وكان يعرف أنه سيتمدد على سريره وسينام بعد مغادرته.

كان يبتسم برقّة، وكأنه ترك طفلًا لينام نومًا عميقًا بعد تعب طويل أو امتحان صعب، ويحدّث نفسه قائلًا:

- ماذا نفعل؟ هنا يشبع من النوم على الأقلّ، وينتقم من تعبه القديم. ولا أحد يمسكه من رقبته ويقول له: «أعطنا نقودًا...» ولا أحد يقول له: «هيا اذهب معنا، سنذهب إلى الحفلة» على الرغم من كونه قد أُنهك من شدّة التعب.

27

حكمت المحكمة على شوكت بالسجن مدة سنة ونصف بعد محاكمة قصيرة، وبذلك سقطت ورقة أخرى من أوراق الشجرة.

عندما كانت خيرية خانم ترى زوجها غارقًا في التفكير، كانت تقول له:

- لا تحزن، إنّ مدة سنة ونصف ليست زمنًا طويلًا، تمضي كغمضة عين.

كان علي رضا بيك يهز رأسه بهدوء، ويقول: «نعم»، لكنه كان يفكّر بطريقة مختلفة في داخله. صحيح أنّ مدة سنة ونصف السنة تمضي كغمضة عين، لكنها مع الأسف، لن تُرجع لابنه الشرف والضمير اللذين فقدهما مرة أخرى.

من المؤكد أن ابنه لن يستطيع النهوض بسهولة بعد خروجه من السجن، فمَن سيطلبه للعمل أو سيطلب منه أيّ شيء وهو يحمل وصمة العار هذه؟

بالنتيجة سيتعثر شوكت طوال حياته، فقد أصبح معاقًا كمن قُطعت يده أو رجله. لم يفقد الرجل العجوز الأمل على الرغم من إدراكه ومعرفته ذلك، فقد كان يواسي نفسه ويقول: «ماذا سنفعل؟ حدث ما حدث، ويكفيني أن يكون ابني حيًّا، هذا ما أريده.»

صباح اليوم التالي طلب علي رضا بيك تنظيف أحد أطقمه بالكاز وكيّه، وفي الوقت نفسه قام بإصلاح حذائه، ووضع له

نصفي نعل كان قد خبّأهما في الخزانة. لقد خصّص تلك الملابس لزيارة شوكت فقط. لم يكن يعرف لماذا كان موظفو السجن يعاملون شوكت معاملة خاصة تختلف عن زملائه الآخرين، لكنه على أي حال كان يريد ارتداء ملابس مناسبة خلال زيارته لابنه في السجن، حتى لا يكون مدعاة لخجله هناك.

لم يبق لعلي رضا بيك سوى الراتب التقاعدي والذي لم يكن يتجاوز 5, 32 ليرة لتلبية معيشة ستة أفراد في البيت بعد دخول شوكت السجن. كان يتوسل ويدعو الله لإيجاد زوجٍ لإحدى ابنتيه بأيّ شكل من الأشكال، لكن حتى أسوأ شاب من الشباب الذين كانوا يحومون حول ابنتيه في الحفلات والرحلات كان يتدلل أو يهرب عندما يكون الحديث عن الزواج. وعلى ما يبدو فإنّ سمعتهما السيئة نتيجة طريقة عيشهما كانت سبب ذلك، لكن لا أحد يتحدث مع علي رضا بيك بذلك. كان الرجل العجوز يفهم ذلك من خلال شكاوى زوجته المبهمة وقولها: «ما العيب في ابنتيّ؟ ظننت أنه لا يمكن لأي فتاة أن تتزوج في هذا الزمان من دون حضورها الحفلات وإتقانها الرقص!»

تقدّم شخص ثانٍ للزواج بليلى تعرّف إليه علي رضا بيك في محل القماش الذي يملكه، وهو في سن الخامسة والأربعين وأحواله المادية ميسورة، وهو رجل جيد.

حاول علي رضا بيك جمع معلومات سطحيّة عنه من خلال جيرانه أصحاب المحلات الأخرى، وذلك من باب رفع العتب،

ومن ثَمّ وافق على زواجه بابنته. لكن أغمي على ليلى فجأة في ليلة الخطبة.

بكت الفتاة وانتفضت وقالت: «لقد ظلمتموني، ماذا سأفعل مع رجل في سن أبي؟ أنا أرمي نفسي في القبر أمام أعينكم بسبب فقركم! لو أنّ بإمكاني الانتظار قليلًا فلربما أجد الشخص الذي أريده!» وكانت نجلاء تنتف شعرها وتُوَلْوِل بجانب أختها.

لا شك أن هذا الزواج كان سينقذ علي رضا بيك من مشكلة كبيرة. وعلى الرغم من ذلك لم يتردد الرجل العجوز في إعطاء ابنته الحق في رفضها له.

كان علي رضا بيك قد حرد من ابنتيه منذ أشهر وربما منذ سنوات، ولم يرغب ولا مرّة في النظر إلى وجهيهما طوال هذه المدّة، لكنه عندما رآهما تحتضنان بعضهما وتبكيان في تلك الليلة نظر إليهما بإمعان ورأى كم هما جميلتان إلى درجة تدهش الإنسان! كم ظلمهما بحَرَدِه منهما! وفي الواقع هما ما زالتا مثل الأطفال، ولم تفعلا أيّ شيء سوى الانجرار إلى الجهة التي يجرفهما نحوها تيار الطوفان، كذلك كان عليه أن يعذر شوكت الذي لا حول ولا قوة له أيضًا.

قال علي رضا بيك برقّة لا يمكن توقّعها:

- حسنًا يا ابنتي... لا داعي للبكاء طالما أنك لا تريدين، لا أحد يستطيع إجبارك... بإمكاننا الانتظار مدة معيّنة.

كان علي رضا بيك يعرف أنّ كنّته فتون هي سبب المساوئ

جميعها التي كانت تحصل في البيت، فلولا وجودها لما كانت الأمور قد وصلت إلى هذا الحد ولم تفسد أخلاق ابنتيه، إضافةً إلى ذلك كانت هي السبب في قيام شوكت بالسرقة ودخوله السجن، وعلى الرغم من ذلك حاول الرجل العجوز مداراتها، وعاملها بطريقة أفضل مما كان يعاملها في الماضي بعد سجن ابنه، وكان يقول لزوجته أحيانًا:

- يا روحي... عاملي فتون بطريقة حسنة أكثر من الماضي... بالنتيجة هي كَنّتنا وأمانة من ابننا... الآن ليس لها أحد غيرنا... هي حزينة جدًّا... يمكن أن تحرد أو يؤثّر فيها أي شيء، والأهم من ذلك أنّ ابننا يحبها. لا داعي لحدوث أيّ مشكلة بسببنا طوال المدّة التي يمكثها شوكت في السجن مقيّدًا.

كانت خيرية خانم تفكّر مثل زوجها تمامًا، لكن فتون كانت تتسلط أكثر فأكثر مع محاولة علي رضا بيك وخيرية خانم مسايرتها. كانت تفتعل المشاكل من دون أيّ سبب. أصبحت المرأة تنفر من علي رضا بيك على الرغم من أنها كانت تحترمه إلى حدٍّ ما في الماضي، وكانت تقلل من احترامها له مثل حماتها أو تهزأ به وبقلة أدب. وعندما كانت خيرية خانم تصل إلى حد نفاد الصبر كان علي رضا بيك يقول لها:

- إيّاك يا خيرية... تحمّليها قليلًا... ألا تعرفين؟ غاية هذه المرأة أن تختلق مشكلة عمدًا... حتى إذا فتحتِ فمك ونطقتِ بأيّ كلمة، وضعَت كلّ الحق علينا.

بدأت فتون بالخروج إلى الشارع باستمرار؛ وكانت تأتي إلى البيت في وقت متأخر، حتى إنها تغيبت عن البيت ذات مرة عدة أيام، بحجة زيارة إحدى قريباتها في البوسفور.

أخيرًا وصلت منها رسالة بعد أن أمضت عدة أيام عند أقربائها في البوسفور كتبت فيها:

«صبرت عدّة سنوات... لكنني لم أستطع الصبر أكثر. إنني مضطرة إلى عدم الرجوع إلى بيتكم مرة أخرى. قولوا لشوكت أن يعذرني. سأكون سعيدة إذا تصرّف بإنسانية وطلّقني بسرعة. سأكون ممتنّة له. أنا أستطيع تدبّر أموري...»

قالت ليلى ونجلاء اللتان أصبحتا معاديتين لها بمقدار ما كانتا صديقتيها: «لن يأتي خير لأخي من تلك المرأة. كنا نعرف أشياء كثيرة عنها، لكننا بقينا صامتتين... ذهابها خير لنا... لتذهب إلى الجحيم!» وأظهرت خيرية موقف بناتها نفسه أيضًا.

أمّا بالنسبة إلى علي رضا بيك، فقد كان غارقًا في التفكير: إنّ هرب فتون يخفف الحمل عن البيت وينقذه من بلاء. لكن إلى أيّ درجة سيتألم شوكت من هرب زوجته؟ من المؤكد أن ابنه يحبّ تلك المرأة، أصلًا. ألم يكن هذا العشق المشؤوم هو سبب المصيبة التي ألمّت بالأسرة؟!

كانت مشكلة إخبار شوكت بهذه الحادثة هي المسألة الثانية التي تشغل بال الرجل العجوز. لا يمكن لأحد أن يخبره بذلك إلا هو، لأن عليه أن يكون بجانب ابنه في تلك اللحظة، أضف

إلى ذلك أنه يمكنه القيام بهذه العملية كأب بشفقة واهتمام أكثر من غيره، لا بل عليه الإسراع بإخباره بها حتى يسمعها شوكت منه قبل أن يسمعها من الآخرين.

في ذلك الأسبوع رأى علي رضا بيك ابنه مريضًا إلى حدٍّ ما، ومزاجه على غير ما يرام وهذا ما جعله يتردد قليلًا في إخباره في بداية الأمر، لكنه قرر فيما بعد أنه يجب أن يحدث ما يحدث مباشرةً لأن شوكت يمكن أن يحزن ويقول: «لا يحقّ لكم التكتم على شيء مهمّ كهذا إلى هذه الدرجة، لو أخبرتموني عندما كانت المسألة ساخنة فلربما كنت قد فكرت في حلٍّ ما.»

ساق الرجل العجوز الحديث إلى أن أوصله إلى فتون، بعد أن تحدث عن أشياء من هنا وهناك وقال: «يشهد الله يا شوكت أننا نعمل ما بوسعنا أنا ووالدتك كيلا تشعر زوجتك بغيابك. إننا نعاملها أفضل من معاملتنا أخواتك، لكننا لا نستطيع إرضاءها بأي شكل من الأشكال، فهي تشكو منا ومن بيتنا وفقرنا عمدًا، حتى إنها تتمادى أكثر من ذلك وتقول: «ليتني كنت حرة كي أدبّر رأسي!»»

كان علي رضا بيك ينعم النظر في وجه ابنه بدقة لمعرفة مدى تأثير هذا الكلام فيه، ولكنّ الرجل الشاب قال بلهجة شديدة وعصبية:

- إذًا لماذا تنتظر؟ الباب مفتوح... لا أحد يجبرها على البقاء! ليتها تفعل هذا الأمر وتنقذنا وتنقذ نفسها من هذا الهم...

استغرب علي رضا بيك ذلك، وبدأ قلبه يخفق ويقفز من الفرح، هل من المعقول أنّ ابنه يرى الأمور كما حدثت فعلًا أم يحاول إغواءه واستنطاقه بعد أن شعر بحصول شيء ما في البيت؟ أو أنه يقول ما يقول لأن شكاوى فتون أثّرت في عزة نفسه؟

لم يستطع الرجل العجوز التعبير عن فرحه مباشرةً وقال:

- يا ابني يا شوكت، صارِحْني، هل ما قلتَه صحيح وأنت مقتنع به؟

هزّ الرجل الشاب رأسَه وابتسم:

- للأسف هذا صحيح يا أبي... إنّ التخلص من هذه المرأة هو أكبر فرحة بالنسبة إلينا.

لم يستطع علي رضا بيك قول أي شيء، فأخرج رسالة فتون من جيب قميصه ويداه ترتجفان، وقد شحب وجهه حتى ابيضّ مثل الكلس وانقطع نفسه، ومن ثم أعطاه الرسالة.

كانت الغرفة مظلمة، لذلك اقترب شوكت من النافذة لقراءة الرسالة. لم يستطع الرجل العجوز إزاحة نظره عن وجه ابنه على الرغم من اختلاج قلبه بطريقة غريبة. كانت تلك اللحظة أطول لحظة امتحان بالنسبة إلى ابنه، وسيعرف خلالها مدى حب شوكت لهذه المرأة.

قرأ الرجل الشاب الرسالة بدقة فائقة وهادئة، لكنه بدا وكأنه يقف عند بعض النقاط، ومن ثم التفت إلى والده ضاحكًا على

الرغم من شحوب وجهه وقال:

- كنت أعرف أن هذا سيحدث عاجلًا أو آجلًا، بصراحة لم أتوقع أن يكون خلاصنا بهذه السرعة، الحمد الله على سلامتنا يا أبي.

حضن علي رضا بيك شوكت بذراعيه وقبّله على خديه ولم يستطع ضبط نفسه، فبكى وقال:

- هل ما تقوله صحيح يا شوكت؟ لم تقل ذلك من أجل مواساتنا؟

- أقسم الرجل الشاب بفرح وهو يبتسم وقال:

- ماذا تقول يا أبي؟ خلصت من أكبر زنزانة في حياتي... لا يمكن أن أكون سعيدًا إلى هذه الدرجة حتى لو تم إخلاء سبيلي في هذه الدقيقة وتركوني اذهب معك إلى البيت.

لكنه رأى أن والده لم يقتنع بعد، لذلك أراد توضيح الأمر أكثر من ذلك فقال:

- أنا كنت أحب هذه المرأة في بداية الأمر، لكنني بدأت أبتعد عنها وأقرف منها بعدما رأيت الجوانب البشعة والغريبة منها. لا يمكنني أن أرى حتى الإنسان الذي أحبه في تلك المعمعة والأزمة... قبل كل شيء إن الحب هو مثل الأشياء الأخرى، امتياز للناس الذين يمتلكون المال والوقت والمرتاحين إلى حدٍّ ما، وفي النتيجة أنني عشت وقتًا لم أعد أستطيع تحمّل حتى تنفّس تلك المرأة بجانبي... وإذا كنتَ ستسأل وتقول:

«طالما أنّ الوضع كان هكذا فلماذا تحمّلتَ هذه المرأة طوال هذه السنوات؟ ولماذا صبرتَ حتى وصلتَ وأوصلتَنا إلى هذه النقطة؟» فمن الصعب شرح ذلك للآخرين، لكن أنت قد تفهم الوضع.

أنا لست من نسيج الناس الذين يتخلّون بسهولة عن الأشياء التي يعتبرونها مسؤوليتهم. كنت مضطرًّا إلى المقاومة حتى النهاية، أكان الأمل موجودًا أم لم يكن. ماذا سنفعل؟ لقد ربّيتنا بهذه الطريقة. لو كنتُ من الناس الذين يقولون: «إن من ينقذ سفينته هو القبطان» لما كان حدث ما حدث. هيا يا أبي ارجع إلى البيت وقلبك مرتاح، إنّ ذهاب فتون من بيتنا هو أكبر سعادة لنا، إياك أن تحزن وتقول: «لم نستطع القيام بالمهمة التي أخذناها على عاتقنا، وكنا السبب في تدمير بيت إنسان وحياته»، هذا النوع من البيوت لا يمكن أن يسمّى بيتًا. في الواقع إن إنسانيتنا لم تجلب لنا إلا الضرر... دعنا نجرب الحيوانية قليلًا.

28

أدى هـرب فتون إلى ثورة في إدارة البيت، بحيث لم تستطع ليلـى ونجـلاء الحفـاظ علـى السـلطة بعـد أن فقدتـا رئيسـتهما، واستولى علي رضا بيك على الحكم والحكومة لمدة معينة.

أمّا وجود شـوكت في السـجن فقد أدّى إلى توقّف السهرات الليليـة وابتعـاد الضيـوف المعتاديـن عن هذا البيت، فقسـم منهم اعتبر أنّ اللقاء بأسـرة سـجين يحمل وصمة عار هو قلة شـرف، أما القسـم الآخـر فقد كان يهرب من المأتـم الموجود في البيت علـى الرغـم مـن أنه لم يكـن يفكر بهـذه الطريقـة، وهناك بعض الأشـخاص الذيـن امتنعوا عن زيارة البيت بسـبب تصرّفات علي رضا بيك الذي ظل يعبس في وجوههم. لم يأتِ أحد ليدقّ باب البيت الموجود في «بغلارباشي»، ولـم يكن علي رضا بيك يسمح لابنتيـه بالخروج إلى الشـارع كلما أرادتا ذلـك، أو بالتحدث إلى هـذا وذاك، وكان يقيـم القيامـة عندما تتأخران قليـلًا بالعودة إلى البيـت عنـد خروجهما لزيارة أحد ما، ولا أحـد كان يمكنه التنبؤ إلـى متى سـتتحمل ليلـى ونجلاء هذا الكبت، لكـن الحادثة التي انتهت بزواج نجلاء أنستهم العالم مدة أربعة أشهر تقريبًا.

تقـدم ثلاثـة أشـخاص للـزواج بليلـى خـلال الصيـف، كان أفضلهم الدكتور الشاب نظام بيك، أعجبت ليلى بشكل الشاب، وخيريـة خانـم بمهنته وأسـرته الأنيقة، وأعجـب علي رضا بيك برزانتـه، وغمَر الفرح أهل البيت كلهم، لكن قبل الخطبة ببضعة

أيام بعث نظام بيك برسالة موجزة إلى علي رضا بيك يعلمه فيها أنّ هذا الأمر لن يتم ومن ثَمّ سافر إلى أزمير. لم يُعرف السبب بأيّ شكل من الأشكال، ظنوا أن الأعداء قد ألّفوا بعض القصص عن ليلى وافتروا عليها، لكن قصة أخرى ظهرت بعد مدة معينة، فقد قيل إنّ والد نظام بيك لم يوافق على أن تكون كَنَّتُهُ فتاة أخوها سارق، وقال لابنه إنه سيتبرأ منه في حال تزوج بها.

كان الزبون الثاني لليلى يعمل موظفًا في المالية... كان شخصًا جيدًا أيضًا حتى إنه كان أكثر وسامة من الدكتور من حيث الشكل، وعلى الرغم من ذلك فإن ليلى ضحّت به من أجل زبونها الثالث من دون أي تردد.

كان هذا الرجل من سوريا في سن الخامسة والأربعين جاء لزيارة أسرة تقضي عطلتها الصيفية في «تشملجة» ورأى ليلى على باخرة «أوسكودار» وقرر الزواج بها فورًا. كان المصري أو السوري بالنسبة إلى أغلب الفتيات فرصة كبيرة لا يمكن تعويضها من حيث إمكانيّاته لتقديم أنواع السعادة جميعها. لقد جُنّت الفتاة عندما سمعت أن رجلًا عربيًا غنيًا تقدم لخطبتها، فمعنى ذلك أنها حصلت على الجائزة الكبرى التي لا يحصل عليها أحد حتى بنسبة واحد بالألف. لم تشاهد ليلى حتى وجه هذا الرجل مثل البشر والناس، ولم تكن تعرف أي شيء عنه، لكن خيالها الخصب أوحى لها أنها أصبحت زوجة لأحد التجّار

الهنود الذين تبرق قطعة ماس كبيرة على جبين كلٍّ منهم، كالذين تراهم في السينما، وأخذت تعد أمها ووالدها وإخوتها بوعود غريبة عجيبة من دون حساب. لقد انتهى الفقر، وسيعيش أفراد الأسرة كلهم مثل الأمراء بفضل الصهر السوري.

تسلل الأمل الجنوني المذكور الذي راود الفتاة الشابّة إلى إخوتها، ومن ثم إلى والدتها وأخيرًا إلى علي رضا بيك الذي أوصله اليأس إلى درجة يطلب فيها النجدة من الطير الطائر، وخيّم جو العيد في البيت عدة أيام...

حاول عبد الوهاب بيك إظهار نفسه كرجل إنساني بمقدار ما هو رجل غنيّ، فلم يَعِب فقر علي رضا بيك، وكان يقول: «أنا لا أبحث عن ناس لديهم نقود، أنا أبحث عن ناس شرفاء... وإذا أسعدتني ليلى خانم فوَالله لأغمرها بالماس والذهب.»

أُجريت مراسم خطبة بسيطة في القصر الذي يمكث فيه العريس، لأن بيت علي رضا بيك بات يشبه أي شيء إلا البيت، وأهدى عبد الوهاب بيك ليلى ثوبًا جميلًا وعقدًا بهذه المناسبة. كان الخطيبان سيبقيان في اسطنبول حتى نهاية شهر أيلول، ومن ثم يقيمان حفلة عرس بسيطة ويذهبان إلى سوريا. وبدأ عبد الوهاب بيك يداوم في بيت «بغلارباشي» بشكل منتظم، وكان يقول باستمرار: «لا أريدكم أن تُحرجوا... لا داعي لتعذيب أنفسكم... والله ليس من الضروري حتى أن تعملوا فنجان قهوة.» كانت خيرية خانم تعرف أنها لا تستطيع استضافة هذا الشخص

«الأكابري» كما يجب مهما فعلت، لكنه ضيف في بيتها، ويجب عليها القيام بـ«اللازم».

كان الديكور الذي يتمّ ترتيبه في الجزء المخصص للسهرات الليلية في الماضي، يتم ترتيبه في غرفة الضيوف وبشكل أفقر لأنّ أغلب أغراض البيت قد بيع، فكان الصهر يدخل إلى هناك، حيث يضيّفونه الشاي والقهوة والبوظة عندما يمرّ بائع البوظة في الشارع.

غيّرت خيرية خانم سياستها، لأن عبد الوهاب بيك كان محافظًا، ويتحدث عن الدين والأخلاق على الدوام. فكانت تبدأ بحركات العينين في حال بدأت الفتيات بتخفيف الدم أو تفوّهن بشيء ما أو ضحكن كثيرًا، كانت تخاف كثيرًا أن يسمع عبد الوهاب بيك من جهة ما أشياء عن حياتهم القديمة. حتى إنها حاولت في أحد الأيام إجبار نجلاء على وضع الحجاب عند ظهورها أمام صهرها.

كانت ليلى تؤيد سياسة أمها، وتحاول تمثيل دور فتاة أيام زمان التي ليس لها علاقة لا بالزينة ولا بالسهرات ولا بأشياء أخرى، لا داعي للاستعجال... في النهاية ستسيطر على زوجها الذي يكبرها بخمس وعشرين سنة وستجعله يعمل ما ترغب فيه، وأمامها حياة طويلة لتحيا الحياة السعيدة التي تحلم بها.

وعد عبد الوهاب بيك بإيجاد أزواج أغنياء وذوي قيمة مثله لابنتي حميه، عندما يأتي الوقت المناسب.

لذلك كانت نجلاء وعائشة تحملان صهرهما على كفوفهما، وتحومان حوله مثل المروحة.

أمّا بالنسبة إلى علي رضا بيك، فقد كان ممتنًّا بالطبع لهذا الملاك الذي أُنزل على شكل عربيٍّ طويل تشبه أذناه أذني الجمل، وذلك لحماية بناته من كارثة مؤكدة، مع ذلك لم يعرف لماذا لم يكن يثق بهذا الرجل كما يجب، لا بل كان يشكّ فيه أحيانًا من خلال بعض تصرفاته وكلامه، لكنه كان بحاجة في ذلك الوقت إلى التشبث بشيء ما، والإيمان به إلى درجة عدّ الأفكار التي تستفيق في ذهنه ناتجةً عن التعفن الموجود في داخله وكان يقول: «أنا أصبحت أظلم الناس، من المؤكد أني أخطئ في حق هذا الرجل»، والأهم من ذلك أنه كان متعطشًا إلى كلمات الأخلاق والفضيلة والصدق إلى درجة أن أذنيه ستسمعانها بكل استمتاع، بغضّ النظر عن الفم الذي تخرج منه.

كان عبد الوهاب بيك يأخذ ليلى في مشاوير، ويعيدها إلى البيت بعد أن يحمّلها علبة كبيرة فيها بعض الأغراض، فتكاد الفتاة الصبية تجنّ من فرحها عندما ترى هذه الهدايا، ولا سيّما المانطو المخملي الأسود. كانت ليلى ضبطت نفسها بصعوبة للتصرف بطريقة رزينة خلال وجود عبد الوهاب بيك، ومن ثمّ عانقت أمها ووالدها وأختيها بعد ذهاب خطيبها، ورقصت عدة دقائق في الغرفة، وألصقت خدّها بِياقَةِ المانطو الأسود وأخذت تفتل وترقص رقصة فالس، وهي مغمضة العينين وتغني أغنية تعلمتها

من الغراموفون. اغرورقت عينا علي رضا بيك بالدموع رغمًا عنه عندما رأى ابنته تدور وترقص. هنّ فعلًا كنّ أطفالًا صغارًا. لم يكنّ سيئات ولا حسنات الخلق بطبيعتهنّ، فعندما تنسّم الرياح من جهة ما، كن ينسَقْن أمامها مثل الورقة، ويذهبن ويتدحرجن بالاتجاه الذي تسوقهن إليه الرياح، كم غيّر الأمل والقليل من النقود ابنته التي ظن أنها لا يمكن أن تستقيم!

وقفت ليلى أمام نجلاء بعد أن أنهت رقصتها، وأمسكت أختها من كتفيها بطريقة ساخرة، وقالت: «سأعطيك هذا المانطو بعد أن يأتيني المانطو الفرو، هل توافقين يا نجلاء؟»

رأى علي رضا بيك انتفاض نجلاء ونظرات ألم شديد في عينيها وهي ترمق ليلى، وشعر بألم مفاجئ في قلبه.

هذا يعني أن نجلاء تغار من أختها، كان الرجل العجوز يبتسم ويفكر عند خروجه من الغرفة:

«يا الله، كم هو حلم فارغ انتظار الإنسان السعادة من أولاده! لا يمكن تحقيق ذلك نتيجة تكوين قلوبنا، ومن المؤكد أن سعادة إحدى الفتيات ستتعرقل حتى لو كنا نمتلك القدرة التي تمكّننا من تقديم السعادة لجميع أولادنا، عندئذٍ سننسى السعيدات وسنسمع صوت ابنتنا التي لم يوفقها حظها، وسنبكي عليها. نعم إن انتظار السعادة من أبنائنا هو حلم فارغ!»

***

اقترب الوقت الذي ستذهب فيه ليلى إلى سوريا، وكان عبد

الوهاب بيك مسرورًا من خطيبته كثيرًا، لكنّ شجارًا حصل بينهما بسبب شيء لا يُذكر، رأت ليلى معارفها القدامى في الباخرة والسوق، فتجنبت الحديث معهم، ولم تبالِ بثرثرتهم ضدها، لكنها صادفت مجموعة منهم رجالًا ونساء عندما كانت تتجول مع خطيبها في طريق «تشملجة»، ولم تستطع الهروب لأن المكان لم يساعدها على ذلك، فاضطرّت إلى الوقوف والتحدث إليهم، حتى إنها اضطرت إلى تعريفهم بعبد الوهاب.

انزعج خطيبها كثيرًا مما حدث، وبدأ يقول لها كلامًا يجرح عزة نفسها وكرامتها، ردّت عليه الفتاة الشابة بلهجة شديدة، وافترقا خلال ذلك المساء وهما على خلاف. لم يزرهم عبد الوهاب بيك لمدة أسبوع، وخيّم خوف شديد على خيرية خانم وعلى جميع أفراد الأسرة.

أخيرًا وصل خبر من الخطيب إلى علي رضا بيك...

حسب رأي عبد الوهاب بيك، فإن ليلى تحدثت مع أناس غير طبيعيين في الشارع، ودافعت عنهم أمام خطيبها أكثر مما يجب، ولا يمكن لأي رجل شريف تحمّل ذلك، لذلك لا يمكنه الزواج بهذا النوع من الفتيات، لكنه لشدة محبته لعلي رضا بيك يمكنه الزواج بنجلاء خانم في حال وافق على ذلك!

كان علي رضا بيك وخيرية خانم قد وبّخا ابنتهما مدة أسبوع وقالا لها: «من المؤكّد أنك تصرفت بطريقة خاطئة، وأزعجت

خطيبك!» لكن علي رضا بيك وخيرية خانم عرفا الحقيقة بعدما وصل هذا الخبر.

وعلى ما يبدو فإن هذا الرجل الذي لم يبحثوا في نسبه، ولم يجروا تحقيقًا حوله كما يجب، كان رجلًا غير سويّ. ربما يكون قد ملّ من ليلى التي خرج ودخل معها مدة شهرين، ورأى أن نجلاء التي تصغرها بسنتين أجمل منها، لذلك فكّر في تركها والزواج بأختها الصغيرة.

لقد اتهموا ليلى ظلمًا بالحادثة الأخيرة، فلم تكن مخطئة البتة. وكان غضبه المفتعل بهدف التخلص من ليلى وأخذ نجلاء. إن هذه حجة بدائية وحيوانية في الوقت ذاته.

انتفض البيت وقام وقعد، كان علي رضا بيك يرى أنّ أفضل طريقة للتخلص من هذا الرجل هي إرسال خاتم الخطبة والأغراض التي جلبها إليهم مع الشخص الذي أرسل الرسالة معه. لم يتردد الرجل العجوز في القيام بذلك أبدًا، لكنّ شيئًا لا يمكن التفكير فيه قد حدث، وهو لا يقلُّ سوءًا عن الاقتراح الذي قدّمه عبد الوهاب بيك.

وقفت نجلاء في وجه والدها بطريقة وقحة لا يمكن انتظارها من فتاة في عمرها وقالت له من دون خجل:.

ـ ماذا تفعل يا أبي؟ هل جننت؟ بأي حق تمنع نصيبي؟ طالما أنّ عبد الوهاب بيك يريدني، أعطيني له بدلًا من أختي وحُلّ المشكلة...

انعقد لسان علي رضا بيك أمام قلّة الأدب هذه والتي لم يتوقعها في يوم من الأيام ولا يمكن أن يتوقعها أبدًا، وأغمي على ليلى... لكن خيرية خانم تمالكت نفسها على الرغم من تأثرها الكبير وقالت:

- كلام نجلاء ليس جميلًا، لكن دعنا نفكر قليلًا يا علي رضا بيك.

جرت مناقشات طويلة وصاخبة في تلك الليلة في البيت، لم يكن علي رضا بيك ليرضى بهذا الزواج إطلاقًا، لأنه يمكن توقّع أي شيء سيئ يصدر عن هذا الشخص الذي تصرف بقلّة أخلاق من الخطوة الأولى. لا يمكن للإنسان الوثوق بإدخال شخص مثله غير منضبط إلى بيته، فضلًا عن الوثوق به والموافقة على زواجه بابنته.

إن الشحّاذين في الشوارع أفضل ألف مرة من هذا الرجل قليل الوجدان والضمير حسب رأيه، أَضِف إلى ذلك أنّ زواج نجلاء بشخص تصرَّف مع أختها هذا التصرف الفظيع هو تصرّف من أشنع ما يكون.

كانت خيرية خانم تؤيّد كلام زوجها كله، لأن عبد الوهاب بيك هو رجل عديم الأخلاق فعلًا، ولا يمكن لأي شخص الوثوق به أو حتى إدخاله إلى بيته، لكن مع الأسف، الزمان قد تغير ولم يعد كما كان في الماضي. أصبح الأولاد محتقرين أكثر من أولاد القطط، وكانت ديون صندوق التسليف لا تزال كما هي، وسيتم

بيع البيت قريبًا وسيتشتتون في الشوارع، ولا يمكنهم انتظار أي شيء من أحد. أصبحت الأرض حديدًا والسماء نحاسًا، لذلك يجب على زوجها التفكير في ذلك كله جيدًا قبل رفض الاقتراح المذكور، أضِف إلى ذلك أنّ القرار الذي سيتخذه بهذا الصدد ليس مهمًّا كثيرًا... لأن الكلمة الأخيرة في هذا الموضوع تعود إلى نجلاء.

الكلمة الأخيرة؟ ابتسمت نجلاء من دون رغبة، بعد أن استمعت إلى هذا النقاش بهدوء مَن اتخذ قراره... ألم تقل الكلمة الأخيرة التي ينتظرونها منها عند وصول الخبر مباشرة؟! إنها الآن تستمع إلى الجدال غير المجدي بين والدها ووالدتها كمن يستمع إلى قصة من دون الشعور بالحاجة إلى تحريك ساكن، وكانت تنظر من النافذة بين الحين والآخر إلى ظلمة الليل وتفكر في سعادتها. فعلًا إن غدًا لناظره قريب... لو رأت ليلة أمس في حلمها أن حظ أختها ليلى طار وجاء إلى عندها ما كانت لتفسّره بعلامة خير، ولما صدّقَته في الوقت نفسه. الآن هناك مسألة مهمة تتطلب منها التفكير، يجب عدم السماح للحظ الذي جاءها من سوريا بالتلاعب معها مثلما تلاعب مع أختها، لذلك عليها تقييده بشكل متين.

كانت ليلى منزعجة كثيرًا من أختها نجلاء منذ النهار، أخيرًا لم تعد تحتمل، وبدأت بقذف التعليقات كالحجارة على أختها عند حديثها مع والدها. كان هذا وضعًا طبيعيًّا بالنسبة إلى

إنسان فقد أمله، ومن الطبيعي أيضًا أن يقوم إنسان تألمت روحه وتلظّت برفع صوته والصراخ، أمّا بالنسبة إلى نجلاء فيجب عليها الاعتراف والتسليم بحق أختها ليلى التي حطّمت أملها، والتعامل معها بتسامح مهما فعلت أو قالت خلال تلك الليلة. يجب على المنتصرين أن يكونوا متسامحين مع الآخرين. لكنّ نجلاء لم ترَ ضرورة للتعامل بتسامح مع أختها، بل لم تتردد في أن تسخر منها قليلًا، عندذاك جُنّت ليلى تمامًا وقامت القيامة في البيت.

بدأت ليلى بالتحدث بطريقة النساء الفاجرات وقالت لها:

ـ يا سافلة... يا عديمة الأخلاق... أنت التي أغويت خطيبي...

فهاجمت نجلاء أختها من دون خوف أو خجل وقالت:

ـ حسنًا أنا التي فعلتُ ذلك... لِمَ لم تفتحي عينيك وتحافظي عليه؟

كانت خيرية خانم تحاول السيطرة على ليلى التي أصبح شعرها منكوشًا، وبذلت عائشة جهدها من أجل إخراج ليلى من الغرفة.

قرفص علي رضا بيك مستندًا إلى الجدار، ووضع رأسه بين يديه وأخذ يبكي ويشهق، ليس بسبب ما حدث بل من السذاجة والدونية التي وصلت إليها ابنتاه. حاولت نجلاء العودة عدة مرات إلى الغرفة عند إفلاتها من بين ذراعي عائشة، لتُفرغ كل سمّها وحقدها من خلال كلمات معيبة لا يمكن لفظها:

«كيف تغيرتِ بعدما لبستِ المعطف! جُننتِ من أجله، أليس

كذلـك؟ بـدأتِ تعاملينـا كمـا تعامليـن بنـات الجيـران من دون خجـل، هكذا يعاقب الله أمثالَك من الناس. قلتِ لي سـتعطينني المعطف بعد أن يشتري لك معطف الفرو، أليس كذلك؟ الآن أنا أتبرّع لك به من أجل سلامة رأسي...»

29

سافرت نجلاء مع عبد الوهاب بيك إلى سوريا بعد خمسة عشر يومًا، وبذلك سقطت الورقة الثالثة عن الشجرة.

كانت هنالك علاقة بين ليلى ونجلاء أبعد من الأخوّة، لأن فارق السن بينهما قليل، وهما متشابهتان من حيث الشكل والأخلاق، وقد تقاسمتا الفراش نفسه وكبرتا معًا، وبكتا وضحكتا معًا أيضًا.

كانتا بالنسبة إلى علي رضا بيك ثنائيًا لا يمكن تصوُّر أن تعيش كلٌّ منهما منفصلة عن الأخرى، وهما أفضل نموذج لما يسمى رابط الأسرة، إلا أنهما لم تتقابلا وجهًا لوجه، وافترقتا وكأنهما عدوتان لدودتان.

صَغرت الأسرة ولم يبقَ في البيت من الأولاد إلا ليلى وعائشة. وباع علي رضا بيك بيته في «بغلارباشي» في أوائل فصل الشتاء، واشترى بيتًا في شارع دولاب بالنقود التي بقيت معه بعد تسديد ديونه كلها. كان هذا البيت عبارة عن غرفتين مظلمتين وخرابتين في الوقت نفسه، وظلّ البيت القديم الذي أطلق عليه الأولاد اسم الجحيم كقصر في الجنة مقارنةً بالبيت الجديد. لم تعجب خيرية خانم بالبيت وقالت: «دعنا ننتظر قليلًا، ربما نجد أفضل منه.» ضحك علي رضا بيك الذي أصبح مختلفًا عن الماضي بسخرية مرّة وقال: «هل أنتظر؟ هل سنحصل على غنيمة؟ هل ستتركونني؟»

دخلت البنات البيت وهن يبكين وكأنهن يدخلن السجن، وكان علي رضا بيك يشعر الشعور نفسه تقريبًا، لكنه وضع المفتاح على شفته بطريقة عفوية، ومن ثم دخل البيت وقال: «الله لا يحرمنا منك.»

لم ترجع ليلى إلى طبيعتها بعدما حدث مؤخرًا، وصرخَت: «رأسي رأسي!» ومرضت في اليوم الثاني بعد انتقالهم إلى البيت الجديد. بقيت في الفراش مريضة مدة خمسة وأربعين يومًا لم تنطق فيها بكلمة واحدة. الحمد الله، لم يكن مرضها خطيرًا. أخذوها إلى طبيب متقاعد في المنطقة فقال لهم:

«عصبية... أطعِموها واسقوها جيّدًا... لا تزعجوها... عندذاك تشفى.»

تحسّنت ليلى بعد شهر ونصف، كما قال الدكتور، لكنها تغيّرت وظهرت على الساحة ليلى مختلفة... كأنهم أخذوها من الفراش ووضعوا مكانها شخصًا آخر. ضعفت كثيرًا، وكانت تمشي بصعوبة مثل طفل يتعلم المشي، وتسودّ الدنيا في عينيها بين الحين والآخر فتغطي وجهها بيديها، لكن وجهها ظلّ جميلًا مع أنه تغيّر كثيرًا.

كان علي رضا بيك يجدها أجمل مما كانت فالمرض أرخى بظلال من الحزن والظلم على وجهها.

تغيرت أخلاق ليلى مثلما تغير وجهها، لم تعد تغضب من أي شيء يحدث حولها، كما كانت في الماضي، وطأطأت رأسها

واستسلمت لقدرها تمامًا. رأى علي رضا بيك أن الحزن يخيّم على عيني ليلى بشكل دائم، وكان الرجل العجوز يعتقد أنها تبكي من أعماقها عندما تبتسم وتتحدث مع الآخرين لكن دموعها ناعمة ودافئة إلى درجة أنها تتبخر وتتشتت في الجو قبل أن تسقط من عينيها. ربما كان ذلك وهم رجل عجوز تراخت أعصابه، لكن مهما كان الوضع فقد صار يشعر بشفقة غريبة تجاه ليلى.

ثم بدأ حب الأبوة القديم يتعاظم في داخله، واندثرت جميع انفعالاته حيال ابنته رويدًا رويدًا، بعدما ذهبت أدراج الرياح.

بدأت ليلى تخرج إلى الشارع بعد أن انتفضت وطلب الدكتور منهم الترفيه عنها والسماح لها بالسفر لتغيير الجو إذا كان ذلك ممكنًا، لكنّ تغيير الجو كان مستحيلًا.

لم يستطع الرجل العجوز تأمين وجبة دسمة للمريضة إلا بشقّ النفس، لكن بإمكان ليلى الخروج من البيت في بعض الأحيان.

دثّرت خيرية خانم ليلى وألبستها جيّدًا في أول مرة خرجت بعد مرضها، وأركبتها عربة رخيصة وأخذتها إلى شاطئ البحر حتى تغيّر الجو، لكن حادثة وقعت في الغرفة الصغيرة الموجودة بجانب الباب الخارجي أغضبت علي رضا بيك مرة ثانية. فقد رمت خيرية خانم صرّة بجانب ليلى وهي خجِلة، وكأنها فعلت شيئًا سيئًا، كانت هذه الصرة هي المعطف المعروف الذي تركته نجلاء «من أجل سلامة رأسها» لأختها ليلى.

من المؤكد أنّ ذاك الكلام الذي قالته نجلاء وهي تصرخ في

وجـه أختهـا بطريقة فاجـرة، كان يطنّ فـي آذان الجميع في تلك اللحظـة، لكنّ أحدًا لم يتشـجع ويقل إنه تذكّـر الكلام المذكور، لأن ذلك يعني أنه يجب رمي هذا المعطف في الشارع عندذاك.

تشـجّعت خيرية خانم من عدم غضب ليلى وجلوسها بهدوء، فقالت لها بصوت منخفض:

ـ هيا يا ابنتي البسيه ودعينا نذهب.

كانت المرأة العجوز تحمل المعطف، وتقف على رجليها وقد مالـت بوجهها إلى جهة أخرى حتى لا يلتقي نظرها بنظر زوجها. ورأى علـي رضـا بيك ابنته تنهض من مكانهـا على مهل، بعد أن وضعت يديها على وجهها وكأن الدنيا قد اسـودّت في عينيها. ثم بدأت ليلى تلبس المعطف المخملي وتخرج إلى الشارع كل يوم.

بقـي علي رضـا بيك صامتًا فـي البداية حيال مـا تفعله ليلى، ماذا ستفعل الفتاة؟ إنها مهمومة. كان يعرف من خلال تجربته أنّ التجوال في الريف والشـوارع هو الحل الأمثل لنسـيان المشـاكل والهموم، وحتى لو لم يكن الوضع هكذا، فإن الجلوس في بيتهم الجديد الكائن في شـارع «دولاب» هو مشـكلة بحدّ ذاتها، حيث يخيّم الظلام على البيت في أيام الشتاء، بحيث لا يمكن الجلوس فـي أيّ غرفه من دون مصباح بعد السـاعة الثانية من بعد الظهر، وأصبحت بعض الأفكار والمخاوف تستفيق لدى علي رضا بيك مع مرور الزمن.

لم يكن من الصواب خروج فتاة شابة وتجوُّلها كثيرًا ولا سيما

أنها كانت تتأخر كثيرًا في بعض الأحيان، وقد عادت وصادقت بعض الناس من الطبقة المخملية مرة أخرى.

عادت الصحة والعافية والفرح القديم إلى ليلى من جديد، لكنّ علي رضا بيك لم يتجرأ على قول أي شيء قد يزعجها، فهو لا يزال ينظر إليها كمريضة. أخذت المخاوف المذكورة شكل خطر ملموس. بعد مدّة بدأ الرجل العجوز يسمع بعض الأشياء المقززة، لكن مع الأسف أنّ حرية ليلى أصبحت حقًّا مكتسبًا مع مرور الزمن. حاول علي رضا بيك تنبيه ليلى في بعض الأحيان لكن من دون جدوى، وبصراحة هو لم يركّز على هذه الناحية كما يجب، لأن محاولاته التي استمرت منذ سنوات طويلة قد أتعبته وأرهقته.

بات النقاش والنصيحة لا يفيدان بأيّ شكل من الأشكال وفقدا معناهما في الوقت نفسه، حيث إن الأمور كانت ستصل إلى المكان الذي ستصل إليه مهما فعل أو تكلم... وبالنتيجة بدأت ليلى تفرح وتمرح حسب رغبتها.

30

كانت الأخبار التي تصله عن نجلاء تسوء يومًا بعد يوم، إذ أدركت الفتاة الشابة أن الغنى والثراء اللذين أُمِّلت بهما من الرجل العربيّ كانا عبارة عن أحلام فقط ولا يمكن تحقيقهما، وقد أدركت ذلك وهي لا تزال في الطريق. لم يكن عبد الوهاب بيك رجلًا غنيًا يمتلك الملايين كما قال لهم خلال وجوده في اسطنبول، بل كان يعيش ضمن إمكانيّات محدودة من خلال قيامه بأعمال غامضة.

نزلت نجلاء في بيت صغير يشبه قن الدجاج، إذا ما قورن بالقصر الذي حلمت به في بيروت. واستقبلها والد زوجها وشريكتان لها وجيش من الأطفال بدلًا من الخدم المصطفّين على أدراج من الرخام. كانت الشريكة الثالثة قد توفيت قبل تسعة أشهر، وطبعًا وقع على عاتق نجلاء القيام بمهمة الأمومة للطفلين اللذين بقيا من تلك المرأة كونها أتت محلّها.

حاولت المرأة الشابة أن تنتفض بعد أن فهمت أنّ كل النعمة التي ستراها هي عبارة عن قطعتي الملابس اللتين اشتراهما لها زوجها من اسطنبول، لكنها عندما رأت كيف هجم عليها والد زوجها من أول معركة، وبدأ يصرخ بصوت فاجر، خافت ولم تتشجع على فتح فمها مرة ثانية.

لا يمكن تحمّل حياة بين شريكتين وأكثر من نصف دزينة من الأطفال، لكن نجلاء خجلت في بداية الأمر من إبلاغ أسرتها بما

حدث لها وخافت خصوصًا من شماتة ليلى بها، لكنها لم تستطع التحمّل بعد مرور بضعة أشهر فرفعت وجه الخجل وبدأت تكتب وتشكو لأهلها بعض الأشياء، وازدادت شكواها شيئًا فشيئًا.

قالت لوالدها في آخر رسالة لها: «لن أستطيع التحمّل يا أبي، سأجد طريقة ما وسأهرب إلى اسطنبول. أنا راضية بالعيش معكم بقطعة خبز يابس. اشتقت إلى أمّي وإخوتي كثيرًا وخاصة أختي ليلى. كانت أختي ليلى قد حزنت لأنها لم تتزوج هذا الرجل، لكنها حين ترى كيف أتعذب هنا، فمن المؤكد أنها ستشكرني لأني أنقذتها.»

نسيت ليلى كل كرهها وحقدها على نجلاء، بعد أن قرأت هذه الرسالة وتوسلت إلى والدها قائلة: «يا أبي، دعنا ننقذ نجلاء.»

كانت خيرية خانم تقاسمها الرأي تقريبًا، لكنّ الرجل العجوز لم يردّ أو يهتمّ لتلك الرغبات، وكتب رسالة إلى ابنته قال فيها: «لقد تأثّرتُ كثيرًا بما كتبتِه لي، لكن مع الأسف لا أستطيع مساعدتك بأي شكل من الأشكال. نحن الآن فقراء أكثر مما كنا في الماضي. ماذا ستفعلين إذا جئت إلى هنا؟ هناك بيتك، مهما يكن. يكفي أن يكون زوجك شريفًا ولا يتركك تحتاجين إلى أحد حتى لو لم يكن له أي ميزة. ستتحملين يا ابنتي وستتعوّدين الحياة مع الناس الذين تعيشين بينهم، لأنه لا يوجد أيّ مخرج آخر.»

قال علي رضا بيك بصراحة إن بابه مغلق أمام نجلاء من

خلال هذه الرسالة، لكن المرأة الشابة تأزمت إلى درجة أنها لم تغضب مما قرأته، وأخذت تصر من خلال الرسائل المتتالية التي كانت ترسلها إلى والدها وتقول: «أنقِذني وإلا سأقتل نفسي، وأنت... ستكون مسؤولًا عن ذلك.»

من المؤكد أنّ تهديد نجلاء بقتل نفسها كان عبارة عن تهديد فارغ، لكنّ الأمر قد يكون غير ذلك أيضًا، لأنه يمكن توقّع أي شيء من البنات اللواتي زهقت أرواحهن وتلفت أعصابهن، وبدأن يتغيّرن بين الحين والآخر.

كان الرجل يشكو وكأنه يردّ على صوت قد خرّش أذنيه قصدًا ويقول: «لقد فهمنا. إن ذلك هو عبارة عن تساقط أوراق بالنسبة إلى الأولاد. ألا يستطيع أي واحد منهم إنقاذ نفسه؟»

31

ذات يوم قام رائد متقاعد من أحد أصدقاء علي رضا بيك القدامى بسحبه إلى زاوية في أحد المقاهي وقال له: «يا علي رضا بيك، يا أخي، سأتحدث معك في موضوع مهمّ جدًّا... لكنني أتردد منذ زمن طويل، لقد قررت التحدث معك لأني أحبك، وأعرف أنك رجل شريف...»

توقف الرائد بعد أن رأى الرجل العجوز يصفرّ ويرتجف، وقال له بعد أن تردد قليلًا:

ـ أظنّ أنك ستتأثر.

استجمع علي رضا بيك قواه، فلا داعي لتخويف صديقه بتصرّفات لا معنى لها، ومن المؤكد أنّ ما سيسمعه سيصيبه في صميم قلبه بعد المقدمة التي سمعها منه، لكن لا بد من معرفة الحقيقة مهما كلف الثمن.

قال الرجل العجوز بصوت هادئ قدر الإمكان:

ـ لا تقلق... أنا رجل أتحمّل كثيرًا.

ـ هل تعدني أن لا تحزن؟

ـ لا يمكن أن تقع النار في مكان من دون أن تحرقه... لكنني سأحاول ذلك.

ـ لا داعي لتضخيم المشكلة... أريد أن أقول لك إن عليك منع ابنتك من المشاوير. يفضّل أن لا تسمح لها بالخروج إلى الشارع إذا كان ذلك ممكنًا.

ـ ماذا هناك؟ ماذا حدث؟

ـ لا شيء... لكن ليس من الصحيح منح فتاة شابة في هذه السن الحرية الكاملة.

ـ لا تغيّر كلامك... أنا متأكد أنك تعرف شيئًا ما، قل لي الحقيقة كما هي.

قال الرائد بعد أن تردد مرة أخرى:

ـ حسنًا، سأقول لك كل ما أعرفه، لقد رأيت ابنتك قبل أسبوع، وهي تركب سيارة شابٍّ من الواضح أن أحواله المادية ميسورة، لن تتصور كم تأثرت جرّاء ذلك، وأخبرني أولادي بأشياء أخرى عنها قبل ثلاثة أيام، ربما بالغوا.

انتظر الرائد إصرارًا جديدًا من علي رضا بيك ليخبره أشياء أخرى، لكنّ وضع علي رضا بيك لم يعد يسمح له بالنظر إلى وجه صديقه أو توجيه أيّ سؤال آخر له. قال:

«لم يبق سوى هذا الشيء لم يجرِ على رأسي!» ومن ثَمّ نهض وطأطأ رأسه.

كان الوقت قد أصبح ليلًا بالنسبة إليه، فهو لا يرى المكان الذي يمشي عليه، وراح يتفقد أحجار الرصيف بعصاه ويمشي رويدًا رويدًا، ويحدّث نفسه بصوت عالٍ بحيث يمكن أن يسمعه المارّة في الشارع:

ـ لم يبق سوى هذا الشيء لم يجر على رأسي، بقيت جائعًا و«تبهدلت» وتعرّضت للاحتقار، تحمّلت كل ذلك، لكن لا

يمكنني تحمّل قلة الشرف... يجب عليّ أن أفعل شيئًا ما...

فجأة خطر بباله أمر عندما رأى بيته أمامه وقال في نفسه:

«من المؤكد أنّ الرائد يعرف أشياء أخرى... لم يُنهِ كلامه بعد... يجب عليّ أن أعرف كل شيء، أنا أحتاج إلى معلومات أكثر لفعل شيء ما.»

رجع علي رضا بيك سريعًا، أسرع وهو ينزل المنحدر خشية أن يكون صديقه قد ذهب، وكان توقّعه في مكانه، لأنه عندما وصل إلى المقهى كان صديقه الرائد على وشك الذهاب، فتوسّل إليه علي رضا بيك ليقول له كل ما يعرفه من دون خجل، وحصل على التفاصيل التالية:

كانت ليلى منذ شهرين تصاحب محاميًا متزوجًا لديه طفلان، وكانا يلتقيان في ميناء «أوسكودار» مرتين في الأسبوع ويذهبان إلى بيت في «حيدر باشا».

إذا كان هناك أي مبالغة في هذا الكلام فإن الخطيئة هي في عنق الذي أخبره بذلك، لكن هذه القصة بدأت تتردد حتى على ألسنة الأطفال.

أصبح الوقت ليلًا عندما وصل علي رضا بيك إلى بيته. قالت خيرية خانم له منذ اللحظة التي رأته فيها:

- لم تأتِ ليلى بعد، أين هي يا ترى؟

قام الرجل العجوز بحركة وكأنه ليس لديه الوقت للتفكير في ليلى من شدة تعبه، وجلس على الأريكة المكسورة بجانب

الباب. لم يكن يريد إخبار خيرية خانم بهذه الحادثة من دون استنطاق ليلى، لأنه بات لا يثق بزوجته. قد تكون خيرية خانم أخفت عنه بعض الأشياء التي سمعتها من هنا وهناك، لكن حتى لو لم يكن الأمر هكذا، فقد تحاول الدفاع عن ابنتها خشية عصبية زوجها، وقد تحاول شرح شيء ما لليلى من خلال حركات العين والجفن.

كانت عائشة تجهّز العشاء مع خيرية خانم في المطبخ، في حين كان علي رضا بيك يفكر في الأسئلة التي سيوجهها إلى ليلى.

سمع «زمّور» سيارة في أول الشارع بعد عشر دقائق تقريبًا، واقترب صوت رجلين قلقين من البيت، كان باب البيت مفتوحًا، دخلت ليلى البيت وكأنها تخشى إحداث ضجة وسارت نحو الضوء المنبعث من المطبخ، وصرخت صرخة خفيفة عندما رأت أن والدها نهض عن الأريكة التي يجلس عليها في الظلمة.

ـ أنت هنا يا أبي؟! توقّف قلبي من الخوف!

خرجت عائشة من المطبخ وبيدها مصباح، بعدما سمعت صوت أختها، وظهرت فيما بعد خيرية خانم وهي مشمّرة عن ساعديها. قالت المرأة العجوز:

ـ أين كنت يا ليلى حتى هذه الساعة؟ ارتعبنا عليك...

ـ لا شيء... كنت عند صديقتي... دعيني أتنفس ومن ثم أحكي لك.

من المؤكد أنّ ليلى لم تتمكن من تجهيز كذبة مقنعة حتى تلك اللحظة، فطلبت كأس ماء من عائشة وشربته كسبًا للوقت. كان علي رضا بيك يقف على رجليه بجانب الدرج، وقد غابت ملامح وجهه بسبب الظلمة. سألها بصوت هادئ وثقيل:

ـ هل جئت بالسيارة؟

أجابته ليلى بعد أن ترددت:

ـ نعم، زرت إحدى صديقاتي.

لم يستطع علي رضا بيك ضبط نفسه على الرغم من أنه لم يُرد أن يُشعِرَ ابنته بأي شيء.

ـ أصحاب هذا البيت... كم هم جيدون...! يوصلون الضيف بسيارتهم حتى بيته! من هي صديقتك؟

ـ لا تعرفها...

اتجهت ليلى إلى والدها وتابعت حديثها:

ـ كانت صديقتي تريد الذهاب إلى خيّاطها في منطقة «حيدر باشا»... وأصرّت عليّ لكي أرافقها، وطبعًا لا يمكن رفض الذهاب بسيارة مجّانًا... لكننا تأخرنا قليلًا.

أنست كلمة «حيدر باشا» علي رضا بيك كل التصرف بتوازن:

ـ هل هذه أول مرة تذهبين فيها مع صديقتك إلى «حيدر باشا»؟

قالت الفتاة الشابة باستغراب:

ـ نعم...

- أنا لا أعتقد ذلك. في أيّ شارع يوجد هذا الخياط في «حيدر باشا»؟

اتجهت ليلى إلى والدها مرة أخرى وحاولت رؤية وجهه وعينيه في الظلمة، شعرت أنّ الرجل العجوز يعرف شيئًا ما، لكنها لم تهتمّ بالأمر على الرغم من أنها بدت خائفة قليلًا عندما دخلت من الباب قبل قليل، وقالت بصوت حادّ تستعمله في الأوقات التي تريد فيها تخويف والدها:

- أفّ يا أبي... أنت تسأل أسئلة مميتة!؟...

أثارت قلّة الأدب هذه جنون علي رضا بيك، فتوجه نحو ابنته بغضب مخيف وبدأ يصرخ ويقول لها كل ما يعرفه. أرادت خيرية خانم التدخل والقول: «يا علي رضا بيك تمالك نفسك... هذا كذب وافتراء...» وربما كان الرجل العجوز سيتردد لو التزمت ليلى الصمت وتصرّفت بعقلانية، لكنها وضعت يديها على خصرها الملفوف بشال مهلهل ولفّت المعطف على جسدها وتوجّهت إليه مثل الممثلات الإسبانيّات اللواتي يقمن بدور التحدي وقالت:

- ماذا سيحدث حتى لو كان الوضع هكذا؟... لو كنتَ رجلًا، لما كانت ابنتك وقعت بهذا الوضع.

كان ضوء المصباح الذي تحمله ليلى ينعكس على وجهها ويضيء فمها المَطلي بأحمر الشفاه والذي علته السخرية والاحتقار اللذان عبّرت عنهما عيناها المحاطتان بدوائر من

السواد وقد صغرتا جرّاء كراهية كبيرة إلى درجة تنامى فيها شعور القتل لدى علي رضا بيك.

أمسك الرجل العجوز عصاه بشكل مفاجئ وقال لها بعصبية مخيفة:

- اخرجي... اخرجي من بيتي حالًا.

خافت ليلى قليلًا وتراجعت نحو الباب:

- لن أبقى في بيتك حتى لو أصرّيتَ على ذلك، اللعنة على بيتك.

منح الغضب الرجل العجوز قوة تنّين، أبعد خيرية خانم وعائشة اللتين تمسّكتا بيديه ورجليه، ورماهما مثل قطعة القماش وهجم على ليلى. كان هذا الاعتداء غير متوقَّع إلى درجة أن الفتاة الشابة كانت ستتلقى جرحًا بالغًا إذا لم تمت طبعًا لو لم تقم بدفعه عنها وتهرب. وقع علي رضا بيك على الأرض، وعلقت رجله في مكان ما، وانطلقت عصاه من يده ووقعت بعيدًا عنه على مسافة خطوتين.

32

خيّم الحزن الخفيف على علي رضا بيك، ومال فكُّه قليلًا بعد تلك الليلة، وبدأ لسانه يتمتم بكلمات غير واضحة، وصار يعرج قليلًا من رجله اليسرى. ويظهر أن العجوز لم يشعر بذلك، لأن المرض الحقيقي الذي يمزقه هو المرض الموجود في داخله.

كان يقضي أغلب أوقاته في الغرفة الصغيرة لأنه لم يبق لديه وجه للظهور بين الناس. كان هنالك جدار شبه مهدَّم مقابل النافذة، فكان الرجل العجوز يتفرج على الطحالب والأعشاب الخضراء التي نبتت في ثقوبه، وعلى القطط التي تقوم باصطياد الجرذان بين الأحجار، وقد أدّى به انشغاله بذلك إلى محاولته إيجاد ساعة شمس جديدة تعتمد على الضوء الذي يبدأ بالصعود شيئًا فشيئًا من نصف الجدار إلى الأعلى ابتداء من فترة بعد الظهيرة.

أصبح البيت وكأنه مهجور بعد ذهاب ليلى. رمت خيرية خانم نفسها فجأة بعد ما حدث، على الرغم من أنها كافحت لسنين طويلة بقوة لا تعرف من أين تنبعث من جسمها الناحل الضعيف. بدأت تجلي مرة كل يومين، وتطبخ في بعض الأحيان، وتعتبر تمشيط شعر عائشة أحيانًا عملاً مرهقًا ومقززًا للنفس. كانت المرأة العجوز تشبه الجنديّ الذي رجع من معركة طويلة ودامية، وقد بات يشعر في ذلك الوقت بألم جروحه وتعبه السرمديّ، ويكتشف مرضًا أو علة جديدة في جسمه كل يوم. لقد

أصابت مشكلة ليلى علي رضا بيك في أضعف نقطة من قلبه أيضًا، ورأت خيرية خانم أنه كان محقًّا في العنف الذي أظهره، لأن هذه المشكلة هي مشكلة شرف، لكنها على الرغم من ذلك تشعر أنها باتت تكره علي رضا بيك من دون سبب. لم يحدّث أحدهما الآخر بأي كلمة لأسابيع على الرغم من أنهما موجودان في البيت ذاته ليل نهار.

كان علي رضا بيك يرى هذا الوضع كمشكلة معقدة لا يمكن فهمها:

- لقد خسرنا أولادنا واحدًا إثر الآخر... وبقينا وحيدين تقريبًا كما لو أنّا تزوجنا حديثًا، ألا يجب أن نشعر بحاجة أحدنا إلى الآخر بعدما عشنا تلك المصائب؟ لكننا نكره بعضنا في الوقت الحالي... يا رب كم هو الإنسان مخلوق غامض!؟

كان علي رضا بيك يرى هذا الغموض في معاملته ومعاملة زوجته لعائشة، لم يبق لديهما إلّاها من أصل خمسة أولاد، لذلك كان من الطبيعي أن يوجها كل حبهما إليها وأن يحباها أكثر من إخوتها بخمسة أضعاف، لكنهما كانا يعاملانها كقطة تتجول في البيت فينهرانها ويلاحقانها من مكان لآخر. وأصبح واضحًا أنه لا يوجد فرق بين الأولاد وطقم الكؤوس، فكلما انكسر كأس تم رميه في زاوية ما.

دخلت عائشة سن الرابعة عشرة وبدأ جمالها يظهر مثل أخواتها، لكن لم يكن هناك من يرى ربيع عمرها. أصبحت

عائشة الشقيّة طفلة جبانة، فلم تكن تتجرأ على الضحك والتحدث بصوت عالٍ أو المشي السريع، كما لو أن هناك شخصًا ما قد مات أو أنّ مريضًا في البيت، وكانت ترمي نفسها في الحديقة أو في بيت الجيران عندما تسنح لها الفرصة. ولقد تعوّد علي رضا بيك هذه الكارثة، فكان يحمل عصاه ويخرج إلى الشارع في بعض الأحيان. وذات يوم مرّ بالمقاهي القديمة، فنقر أصدقاؤه على الزجاج ونادوه، دخل المقهى بعد أن بدا أنه يتدلل قليلًا. ورأى أن المعاملة القديمة التي كان يتلقاها من أصدقائه لم تتغير نسبيًّا، والحق أنّ على أصدقائه أن يتصرفوا معه بهذه الطريقة، لأن ذلك هو الصحيح.

لو كان قد تغاضى عن ليلى وتركها في بيته بعد أن علم أنها سارت في طريق سيئ، لحقّ لهم وصفه بقليل الشرف، لكن، وباعتبار أنه طردها من البيت بعدما علم بالحقيقة مباشرةً، ولم يعد يذكر اسمها مرة ثانية، فلا يمكنهم التفريق بينه وبين أب توفيت ابنته، وعليهم أن يشفقوا عليه.

33

لم يرد ذكر اسم ليلى في البيت على الرغم من أنه كان يجري التحدث عن باقي الأولاد في بعض الأحيان، لكن في يوم من الأيام نادت خيرية خانم عائشة باسم ليلى سهوًا منها وعلي رضا بيك باسم شوكت، كانت تفكر فيهما على الدوام عندما تستلقي وعندما تغمض عينيها كأنها نائمة.

كانت هناك صورة معلقة على الجدار تضمّ علي رضا بيك وأولاده كلهم. وكان الرجل العجوز قد قصّ صورة ليلى التي كانت تجلس بجانب رِجلي والدها وانتزعها من تلك الصورة ولم يبقَ منها سوى يديها المتمسكتين بركبتيه. كان يتصرف مع الأولاد بلؤم في بعض الأحيان.

ذات يوم قالت له عائشة عندما كانت تشاهد هذه الصورة:

- انظر إلى تينك اليدين... كأن ليلى كانت تتمسك بركبتيك وتتوسل إليك!

بدأت خيرية خانم تشهق وتبكي بعدما سمعت هذا الكلام الذي لا تعرف إن كانت عائشة لفظته نتيجة براءتها أو مشاكستها.

هدد علي رضا بيك الطفلة بقبضته المرتجفة، وصرخ:

- يا فصعونة... إياك أن أسمعك تنطقين باسمها ثانية...

انفكّ السحر ابتداء من ذلك اليوم، فبدأت خيرية خانم بالتحدث عن ليلى بين الفينة والأخرى ولم تبال بعصبية زوجها، وصارت تذكّره بذكريات طفولتها بكل وسيلة، وتحدّثه عن

وضعها الحالي من خلال الأحاديث التي تسمعها من هنا وهناك. إنهم يقولون إن المحامي الذي أغواها رجل لا بأس به، فهو يوفر لليلى حياة سعيدة في شقة صغيرة استأجرها في ميدان تقسيم، ويريد أن يتزوجها رسميًا و«يكتب كتابه عليها»، لكنه لم يجد الطريقة المناسبة بعد لتطليق زوجته، يبدو أن هذا الرجل ليس عديم الأخلاق وأنه قام بفعلته نتيجة حبه الكبير لليلى.

كان السرور يخيّم على علي رضا بيك على الرغم من أنه كان يصمّ أذنيه ويقول: «الله يرضى عليك يا خيرية خانم اسكتي!»... بالنتيجة هي ابنته.

كيف كانت خيرية خانم تعلم بكل شيء وهي جالسة في بيتها؟

ذات يوم أخبرت خيرية خانم زوجها أنّ ليلى مريضة وهي طريحة الفراش منذ خمسة عشر يومًا وقالت له: «يا حرام، هي نحيلة ولا تتحمل أيّ شيء... إنني أخاف... هل عاودها المرض الذي تعرّضت له خلال السنة الماضية، يا ترى؟»

أيقظت كلمة «مرض» شيئًا من الرحمة والحب تجاه ليلى في قلب علي رضا بيك الضعيف. لقد زال مشهد ليلى التي تلتفّ بالمعطف وتضع يديها على خصرها بقلة أدب وتزمّ فمها المدهون وتصغر عينيها اللتين يحيط بهما هالتان سوداوان، وحلّ محله مشهد ليلى المريضة الممدّدة على الفراش بوجه شاحب.

تشجعت خيرية خانم حين رأت الحزن الذي بدا جليًّا على

وجه زوجها، وتوسلت إليه وقالت له:

- اسمح لي أن أرى ابنتي مرة واحدة.

لم يغضب علي رضا بيك، لكنه قال لها:

- هل هذا كلام يخرج من فم امرأة شريفة مثلك يا خيرية خانم؟ لن تقابليها مرة أخرى حتى لو كنتِ ستموتين.

لكنّ دمعتين انهمرتا خلال تلك اللحظة من عينيه من دون إرادته. حدّق الرجل العجوز إلى المصباح ليوحي لامرأته أن دموعه انهمرت بسبب الضوء، ثم حنى رأسه وشحط رجله المريضة وخرج من الغرفة. لقد صدّقت خيرية خانم هذه الحيلة الساذجة!

كانت خيرية خانم قد ارتمت وتعبت كثيرًا بعد حادثة ليلى، ولم تعد ترى ضرورة لفتح عينيها وهي مستلقية استعدادًا للنوم عند توجيه أيّ سؤال إليها أو حتى الرد على أي سؤال من الأسئلة، لكنّ علامات اليقظة بدأت بالظهور على خيرية خانم في تلك الأيام، بدأت المرأة العجوز تلفّ تنورتها على خصرها وتنظف البيت وتطبخ وتذهب لزيارة الجيران، لقد غيّرت سياستها حيال زوجها أيضًا، فكانت تحوم حول علي رضا بيك خلسة وتقدّم له خدمات بسيطة، وتحاول كسب قلبه من خلال كلمات معسولة.

كم كانت هذه الحيوية تشبه حيوية الأيام التي بدأ فيها ظهور علامات تصدّع البيت واهتزازه من جذوره ونشوب العراك بين الأولاد. لم يكن علي رضا بيك يفسر هذا التغير كعلامة خير،

ويقول في نفسه: «سأنتظر وأرى... من المؤكد أنّ شيئًا ما سيظهر من وراء سلوكها هذا... جزانا الله خيرًا!»

لم يخب ظن الرجل العجوز فقد ظهر سرّ الخدمة فوق العادة بعد فترة وجيزة، ففي يوم رأى علي رضا بيك ابنته ليلى أمامه وهو يدخل من الباب حاملًا بيده بعض الأغراض. بدأت ليلى تولول وتبكي وتقول: «يا بابا... يا أبي...» ومن ثم هجمت عليه وعانقته، أمّا خيرية خانم وعائشة فقد ركعتا على قدميه وبدأتا تتوسلان إليه.

رجع علي رضا بيك خطوة إلى الوراء وأسند ظهره إلى الجدار، وأغمض عينيه. لم يظهر على وجهه أيّ أثر انفعال أو قلق كبير، لكنه كان يرفع رأسه إلى الأعلى وكأنه يجد صعوبة في التنفس ويحاول فك زرّ ياقة قميصه، معنى ذلك...أنّ هذا هو سبب تحدّث خيرية خانم عن ليلى باستمرار، وأنها التقت هذه الفتاة خلسة ووضعتا خطّة.

أولًا حاولتا تليينه من خلال الذكريات البريئة التي تعود إلى طفولة ليلى، ومن ثم فبركتا قصة مرضها، ثم اقتحمتا البيت بعد أن تشجعتا حين لم يُظهر عنفًا شديدًا... لا بأس بهذه الخطة... لو أنهما قالتا لعلي رضا بيك: «إن ليلى تريد مصالحتك» فلربما أبى ذلك على الأرجح، لكنه إذا رأى وجه ابنته فجأة فقد يتأثر ويعانقها من دون أن يجد وقتًا للتفكير، لكن من جهة ثانية من المحتمل أن يؤدي هذا الاقتحام إلى موت الرجل العجوز

المريض أصلًا. إن على أيّ شخص يفكر في تنفيذ هذه الخطة أن يضع في الحسبان نسبة فشلها بحوالي خمسة في المائة على الأقلّ.

كانت النسوة الثلاث ما يزلن عند الباب بعد انضمام عائشة إليهن، وكانت خيرية خانم تستلم الحديث عندما تسكت ليلى، وعندما تنتهي من التوسل، تبدأ عائشة، ومن ثم يبكين جميعهنّ سويةً. كان علي رضا بيك لا يزال يحاول فك زر ياقة قميصه ولم يفتح عينيه قط وكأنه كان يريد أن يلتزم الوفاء بيمينه التي قطعها على نفسه ويبقى صادقًا عليها حين قال إنه لن يرَ وجه ليلى في هذه الدنيا مرة ثانية.

أخيرًا حين جاء دوره ليتحدّث، قال بهدوء تفرّد به الناس الذين ليس لهم طريق ثانٍ يسلكونه:

- إنكن تتعبن أنفسكن في شيء فارغ، أنا ليس لي بنت اسمها ليلى، نحن كلّ منّا ميت بنظر الآخر.

حاولت كلٌّ من خيرية خانم وليلى وعائشة تليين موقفه لأكثر من نصف ساعة، لكنهن لم يستطعن أخذ أيّ كلمة أخرى منه.

34

بعدما ذهبت ليلى نشب شجار عنيف بين علي رضا بيك وخيرية خانم، فقد رفعت خيرية خانم راية التمرد بعدما تأكدت أنها لن تستطيع إقناع زوجها بأي طريقة من الطرق بكلامها المعسول:

ـ ظننت أنك رجل ولم أخالفك ولا مرة واحدة طوال ثلاثين سنة، اسمح لي أن أنفّذ ما أريده مرة واحدة في هذا العمر، لقد خسرت أولادي بسببك، ولم يبق لدي إلا ليلى وعائشة، إن ابنتي لا تستطيع العيش من دوني، وأنا لا أستطيع العيش من دونها. إذا قال العالم كلُّه إنّ ليلى هي بنت سيئة، فهي أفضل بنت في العالم بالنسبة إليّ، إمّا أن نعيش مع ليلى... أو...

لم تستطع خيرية خانم إكمال حديثها وبدأت بالبكاء.

ابتسم علي رضا بيك وقال:

ـ لا تحزني يا خانم، أنا اتخذت قراري مثلك أيضًا، أنا سأخرج من بينكم... إن شاء الله ستكونان أفضل... هيا نامي الآن وأنت مرتاحة، كوني مطمئنة.

كان علي رضا بيك قد اتخذ قراره بشكل فعلي، هو لن يبقَى في هذا البيت مهما يحدث، لكن خيرية خانم حذّرته عندما رأته يلملم أغراضه، وقالت:

ـ لا تتركنا... أنت رجل معاق... إلى أين ستذهب وأنت بهذا

الوضع؟ في النهاية سترجع إلى هذا البيت، لا داعي «للبهدلة» «على شيء فاضٍ».

اختلق علي رضا بيك كذبة للخروج من البيت من دون إثارة ضجة أو شجار وقال:

- سأذهب إلى أخي بالرضاعة الموجود في «بنديك»، وسأبقى عنده يومًا واحدًا ومن ثم أعود.

لكن علي رضا بيك كان قد قرر الذهاب إلى ابنته فكرت إلى «أدبازري»، لقد فكّر في الكلام الذي قالته له في محطة «حيدر باشا» للقطارات طوال الليل: «إذا ضاقت الدنيا بك أو مللتَ فتعالَ إليّ، وإذا لم يخِب أملي وكان زوجي إنسانًا جيدًا فسأعتني بك بكل جهدي.»

كان في داخله أمل خفيّ، ربما تُبقيه فكرت عندها، وبذلك يتخلص من الحياة البائسة والفقر والعلل. صحيح أنه لا يريد أن يكون حملًا على أي بنت من بناته، لكن ماذا سيفعل، ليس له أيّ مخرج آخر.

استمرّ أمل علي رضا بيك حتى اللحظة التي وصل فيها إلى بيت ابنته الكائن في نهاية شارع مظلم في «أدبازري» وذلك بعد أن دلّه أحد أفراد الشرطة على العنوان.

قالت له فكرت التي كانت تلمُّ السفرة في باحة البيت بخوف وتردّد بدلًا من الاستغراب:

- أهذا أنت يا أبي؟ خيرًا إن شاء الله؟

لم يتشجع علي رضا بيك على معانقة ابنته التي قبّلت يده واكتفى بالتربيت على كتفيها، حيث رأى طفلين ينظران إليه بطريقة وحشيّة، ومن ثَمّ ظهر على أحد أبواب الغرف رجل طويل ذو شاربين أبيضين.

قالت فكرت وكأنها تخجل من هذا الرجل العجوز الذي تعب وهلك من الطريق الطويل الذي قطعه حتى وصوله إلى هناك:

ـ أبي، سيحلّ ضيفًا عندنا.

ضيف!... كيف استقبل علي رضا بيك هذه الكلمة التي رأت ابنته ضرورة النطق بها لحظة دخوله من باب البيت؟ هل كانت فكرت تريد القول لزوجها: «لا تخف ولا تغضب... سيذهب بعد يوم أو يومين؟»

استقبل الصهر علي رضا بيك بطريقة باردة، وقال لفكرت بنبرة آمرة:

ـ جاء والدك من طريق طويل... بالتأكيد هو جائع... جهّزي له طعامًا.

أدرك الرجل العجوز أنّ ابنته غير سعيدة هنا، وذلك من خلال الجو الذي استنشق رائحته منذ لحظة دخوله البيت.

بدا التعب على وجه فكرت في خلال بضع سنوات، وأصبحت كأنها امرأة متوسطة السنّ تقوم بأعمال السخرة في الخارج، وكان توبيخها ومهاجمتها المقصودان للأطفال عند ذهابها وإيابها وهي تجهّز الطعام لوالدها يُظهران أنها أصبحت فتاة عصبية.

بدأوا يسألون علي رضا بيك عن أخبار أسرته في اسطنبول عند محاولته تناول صحن البطاطس الذي وُضع أمامه، لا شك أنه سيحكي كل شيء لابنته عندما ينفرد بها. لكنه لم يشأ التحدث كثيرًا بوجود صهره الذي يُعتبر رجلًا غريبًا بالنسبة إليهما، وحاول تمرير الأسئلة التي تم توجيهها إليه خلال تلك الليلة بأجوبة تقليدية ومعتادة. لكنّ فكرت وزوجها أظهرا عصبيّتهما وحِدّتهما على الرغم من أنهما لم يعلما إلا عشرة في المائة من كل ما حدث لأسرته. قال الصهر:

- نحن كنا نسمع كل شيء.

قالت فكرت بوجه عبوس:

- آه يا أبي... لا تحزن، لكن الحق الكبير يقع عليك... أنت تعرف كم انتفضت وأرهقت نفسي وقلت لك: «افتح عينيك يا أبي... إنهن سيتعبنك... لا تسلّم ذقنك لهن.» لكنك لم تسمع كلامي...

تشجّع زوجها من كلامها وبدأ يلفظ كلمات كبيرة:

- الحق مع فكرت، أنت رجل «فهمان» وشغلت مناصب كبيرة، كان عليك ألا تتصرف برخاوة وأن تقول لهم: «أنا أريد هكذا... وهكذا سيحدث»... وكان عليك رفس أيّ واحدة منهن تفتح فمها على ظهرها وطردها من البيت... هل من المعقول أن أكون سيد البيت وأُسلم ذقني للأولاد؟ هل من المعقول حدوث ذلك؟

بدأ علي رضا بيك الذي «صدّت نفسه» من التعب في الطريق يغصّ باللقيمات، خفض رأسه وقال بابتسامة ملؤها الألم:

ـ ماذا نفعل؟ هذا قدرنا ونصيبنا...

كان في البيت شقيقة زوج فكرت أيضًا، وهي أرملة ولديها طفلان جهزوا لعلي رضا بيك «فرشة» ووضعوها بجانب الباب لأن ليس في البيت غرفة فارغة.

لم يستطع علي رضا بيك البقاء في «أدبازري» أكثر من خمسة عشر يومًا، وذلك بصعوبة بالغة، إذ رأى أنّ فكرت صارت غريبة إلى درجة لم يستطع قول أيّ شيء لها ممّا كان يريد قوله، ورأى أنه لا داعي لقول أي شيء لها لأنها لن تستطيع إبقاءه عندها حتى لو أرادت ذلك.

صحيح أنّ ابنته وعدته وقالت له: «إذا ضاقت بك الأيام فتعالَ إليّ، أنا سأعتني بك»، لكن ذلك كان مشروطًا، وكان يتذكر جيّدًا أنّ فكرت قالت له: «طبعًا إذا كنتُ مرتاحة في بيتي»، لكنّ أمل البنت قد خاب، لأنّ في بيتها الجديد كان ثمّة جحيم من نوع آخر، وأنواع أخرى من مشاكل الحياة.

كان علي رضا بيك يرى فكرت تتناحر وتتشاجر مع حماتها وزوجها وبنت حميها وأولاد زوجها كل يوم. الحمد لله البنت أصبحت امرأة لا يستهان بها.

أخذ علي رضا بيك يشعر أنّ بعض تلك المشاجرات ينشب بسببه، فقد سمع في يوم من الأيام فكرت تقول لحماتها: «إذا

سمعتُكِ تذكرين اسم أبي على لسانك مرّة ثانية فإنني سأهدم هذا البيت على رؤوسكم.»

معنى ذلك أنّ فكرت كانت تسمع كلامًا بسببه، إضافةً إلى العذاب الذي تتعرض له في هذا البيت.

دخلت فكرت غرفة الضيوف وهي تحمل الفراش واللحاف وأشياء أخرى كالعادة. قال الرجل العجوز:

ـ إنني أتمزق من الداخل عندما أراك تتعبين وترهقين نفسك من أجلي، لكن هذه الليلة هي آخر ليلة ـ إذا سمحتِ ـ أنا سأسافر غدًا.

كان علي رضا بيك ينقذ نفسه من موقع الرجل المطرود من خلال قوله «إذا سمحتِ» حسب رأيه.

قالت فكرت بعد أن وضعت الفراش على الأرض:

ـ لماذا تستعجل يا أبي؟

ـ لا أستعجل يا ابنتي... لقد رأيتك بما فيه الكفاية.

قالت فكرت بطريقة حزينة بعدما فكّرت قليلًا:

ـ أبي!

ـ ماذا هناك يا ابنتي؟

كانت المرأة الشابة قد قررت قول شيء ما لوالدها، لكنها ترددت وتراجعت بعد أن رأت عدم ضرورة ذلك وقالت:

ـ معنى ذلك... يجب أن تنام باكرًا، لأنك ستسافر غدًا... تصبح على خير.

فكـر الرجل العجوز بعدما خرجت من الغرفة وقال: «من أين أذكر هذا الموقف والصوت؟» لقد تذكر فورًا.

كان ابنه شوكت قد تصرّف عدة مرات بهذه الطريقة.

في النهاية

لـم يعد علي رضا بيـك إلى بيته بعد أن رجع من «أدبازري»، وتجـوّل مثـل المجنون، وبقي فـي عدة أماكن مختلفـة، لكنه في النهاية مرِض مع مجيء فصل الشتاء، وتعطلت رجله ويده اليسرى تمامًا، ثمّ دخل المستشـفى بعد أن دلّه أحد معارفه القدامى إليه، لكنه لم يستطع البقاء طويلًا، وفي أحد الأيام جاءت خيرية خانم وليلى إلى المستشـفى في سـيارة، وعانقتا علي رضا بيك، وبدأتا بالبكاء.

قالت ليلى:

- من المستحيل أن نتركك هنا يا أبي.

وأما خيرية خانم فقد بدأت تتوسل إليه وقالت:

- يكفيك معاندة يا علي رضا بيك، لَبِّ رغبتي ولو لمرة واحدة!

كان خـوف خيرية خانم من معاندة زوجها عبارة عن هلوسـة ليس لها أيّ معنى، لأن المرض والشيخوخة شلّا أعصابه، وجفّفا تمـرّده مـن جذوره. لـم يسـتغرب اللبـاس الأنيـق والجميل الذي كانـت تلبسـه زوجتـه وابنته ولـم يفكـر من أين مصـدره، بل كان مسرورًا كالطفل برؤيتهما مرة أخرى، وكان يحاول شرح شيء ما

بلسانه الذي أصبح ثقيلًا تمامًا، وكان يبكي من دون أن يذرف الدموع من عينين جفّتا وكأنه يشهق.

كانت خيرية خانم قد أجّرت بيتها الموجود في شارع «دولاب» وانتقلت مع عائشة إلى بناية ليلى الموجودة في «تقسيم». كانت ليلى تعيش وحيدةً مع خادمتها في تلك البناية لأن محامي ليلى، أي زوجها، لم يكن يستطيع الهروب من زوجته الشرّيرة إلا يومين في الأسبوع. كان الوضع المادّي لليلى على ما يرام، بحيث يعطيها المحامي الغنيّ بضع مئات من الليرات كل شهر، لكنها لم تستطع التصرُّف بها لأنه ليس لديها تجربة، «الله يرضى على والدتها»، لقد تركت بيتها وأصبحت الآن تُدير أمور ابنتها بطريقة ناجحة.

جهّزن لعلي رضا بيك غرفة جميلة ومشمسة وباتجاه البحر، وشفي الرجل خلال فترة وجيزة بعد أن حصل على الراحة والغذاء الوفير، ثمّ عاد يتجول في البيت وعصاه بيده ويحاول تعليم ببغاء ليلى النطق من دون التفكير في تأتأة لسانه. وبدأ يشارك في الحفلات التي ينظمها المحامي في البناية على شرف أصدقائه، ويذهب إلى خيرية خانم المنهمكة في تجهيز الطعام والمقبّلات في المطبخ في بعض الأحيان، ويتشبّث بمهمة توزيع المشروب مع عائشة التي أصبحت فتاة جميلة في سن الخامسة عشرة حينًا آخر، حتى إنه بدأ يرفّه عن الحضور في هذه المجالس بقيامه برقصات مضحكة مع بعض النساء بناءً على طلب الحضور.

وعندما كان يملّ من البيت، كن يُلبسنه ملابس نظيفة وأنيقة ويُركبنه السيارة ويأخذنه لتغيير الجو.

في هذه الأيام صار علي رضا بيك يفرح مثل الأطفال الذين يذهبون إلى حديقة الملاهي في العيد، ما لم تتقاطع نظرات عينيه مع نظرات عيون أصدقائه القدامى من المقهى في بعض الأحيان...

النهاية